

التحذيرات

من ذنوب الخلوات

كتبه: جميل بن مسعد المليكي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَكَلِّمًا

الحمد لله الذي أنشأ وبرأ، وخلق الماء والثرى، وأبدع كل شيء وذرا، لا يغيب عن بصره صغير النمل في الليل إذا سرى، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ٦ ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ ٧ ﴿[طه: ٦-٧]. وأشهد أن لا إله إلا الله المطَّلِع على ظاهر الأمر ومكنونه، العالم بسر العبد وجهره وظنونه، لا يخفى على سمعه خفي الأئين، ولا يعزب عن بصره حركات الجنين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أوصانا بمراقبة الله في السر والعلن، فقال ﷺ كما في الحديث الحسن: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ». ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ. وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١٠٢ ﴿[آل عمران: ١٠٢]﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَوْهُ

وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ
وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ [النساء: ١] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا
اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعد: فهذه سطور كتبتها، وأحرف رقمتها، وكراصة جمعتها، تلبية لرغبة بعض المحبين، واستجابة لمشورة بعض الطالبين، حيث وقد طلب مني بعض الإخوة الفضلاء أن أكتب مذكرة وكلمات، في التحذير من ذنوب الخلوات، متأماً لحال كثير من المنتسبين للاستقامة وغيرهم؛ الذين استحوذ عليهم الشيطان، فأوقعهم في الخلوات في معصية الرحمن ، فاستحسن رأيه ، وقبلت مشورته ، واغتنمت الفرصة لأسجل لنفسي

ولغيري موعظة في هذا الباب العظيم الذي أغفله فئام من الناس (١) ،
وأهمله كثير من الخلق، فعسى أن تجد هذه الأحرف آذانا صاغية وأفئدة
متطلعة ونفوساً متشوقة وقلوباً متعطشة متلهفة، فتنفع بهذه السطور،
وتراقب خالقها العالم بذات الصدور، وما ذلك على الله بعزيز .

ثم لتعلم أخي المسلم: أن ذنوب الخلوات تحصد الحسنات وتجلب
السيئات.

❁ ذنوب الخلوات من أعظم الموبقات ومن أشد المهلكات .

❁ ذنوب الخلوات تولد الهموم والحسرات بل هي من أعظم أسباب
الانتكاسات.

❁ ذنوب الخلوات هي تلك الآفة العظيمة التي يقع فيها كثير من
الناس عندما يختلون بأنفسهم لا يبالون بنظر الله عز وجل إليهم ، فإذا
غابت عنهم الأنظار، وحجبت عنهم الأبصار، ونظروا ذات اليمين

(١) الفئام بكسر الفاء: الجماعة.

وذات الشمال ، ونظروا أمامهم وخلفهم ، فإن لم يجدوا أحداً من الخلق عصوا رب الخلق، وإن لم يجدوا أحداً من الناس عصوا رب الناس، ﴿وَيَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

❁ فيا مرتكباً للذنوب والمعاصي بعيداً عن أعين الناس ، أين الله؟! أين الله؟! ما أنت -والله- إلا أحد رجلين؛ إن كنت ظننت أن الله لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك فكيف تجترئ عليه، وتجعله أهون الناظرين إليك .

❁ يا منتهكاً حرمة الله في الظلمات في الخلوات في الفلوات هل سألت نفسك هذا السؤال وأنت تمارس المعصية، «أين الله؟!» ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

❁ يا من تعصون الله في الخلوات والظلام ، يا من تسهرون على الحب والغرام، والعشق والهيام، ألا تراقبون الله الذي يراكم ويعلم سركم

ونجواكم ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (١٣) [الملك: ١٣].

❁ يا من تقضون الليالي الغاسقات، والساعات المظلمات، في الإفساد والمهاتفات، والرسائل والمكالمات مع النساء الأجنبية، ألا تراقبون الله، ألا تتقون يوماً ترجعون فيه إلى الله، ألا تخافون الفضيحة غداً بين يدي الله، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (١٩) [الانفطار: ١٩].

❁ يا من تعصي الله في الخلوات تذكر من يرى ويسمع دبيب النملة السوداء في الصخرة الصماء في الليلة الظلماء .

وَيَرَى عُرُوقَ نَيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (١) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ
الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِالْيَلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾
[الرعد: ٩ - ١٠].

وَهُوَ الَّذِي يَرَى دَبِيبَ الدَّرِّ فِي الظُّلُمَاتِ فَوْقَ صُمِّ الصَّخْرِ

وَسَامِعٌ لِلجَّهْرِ وَالْإِخْفَاتِ بِسَمْعِهِ الْوَاسِعِ لِلْأَصْوَاتِ
وَعِلْمُهُ بِمَا بَدَأَ وَمَا خَفِيَ أَحَاطَ عِلْمًا بِالْجَلِيِّ وَالْخَفِيِّ
فَإِذَا أَغْلَقْتَ عَلَى نَفْسِكَ الْبَابَ، وَوَضَعْتَ عَلَى النِّوَافِذِ السِّتَائِرَ
وَالْحِجَابَ، وَغَبْتَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاظِرِينَ مِنْ إِخْوَانٍ وَأَصْحَابٍ، فَتَذَكَّرَ مِنْ

لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ﴿الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢١٩﴾
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠] ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ
لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا
يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٥٩﴾
وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ
لِيُقَضَّ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾
[الأنعام: ٥٩ - ٦٠].

❁ يا من تعصي الله في الخلوات تذكر المساءلة بين يدي الله ، وتذكر يوماً
تنشر فيه صحائف الأعمال ، فأخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بالشمال. ﴿١٣﴾
وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ
مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ [الإسراء: ١٣ -

[١٤] ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [٤٩] ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [٤٧] ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [٨] ﴿[الزلزلة: ٧-٨].﴾

تذكر ذلك اليوم الذي تبلى فيه السرائر، ويخرج الناس من قبورهم للجزاء والحساب ويعيد الله الخلق كما بدأهم.

غُرْلًا حَفَاءً كَجَرَادٍ مُتْتَشِرٍ
وَيُجْمَعُ الْخُلُقُ لِيَوْمِ الْفَضْلِ
فِي مَوْقِفٍ يَجِلُّ فِيهِ الْخُطْبُ
وَأُحْضِرُوا لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ
وَارْتَكَمَتْ سَحَابُ الْأَهْوَالِ
وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْقَيُّومِ
يَقُولُ ذُو الْكُفْرَانِ ذَا يَوْمٍ عَسِرٍ
بِجَمْعِهِمْ عَلْوِيَّتُهُمْ وَالسُّفْلِي
وَيَعْظُمُ الْهُولُ بِهِ وَالْكَرْبُ
وَانْقَطَعَتْ عَلَائِقُ الْأَنْسَابِ
وَانْعَجَمَ الْبَلِيغُ فِي الْمَقَالِ
وَاقْتَصَّ مِنْ ذِي الظُّلْمِ لِلْمَظْلُومِ

وَسَاوَتْ الْمُلُوكُ لِلْأَجْنَادِ
وَشَهِدَتْ الْأَعْضَاءُ وَالْجَوَارِحُ
وَابْتَلَيْتُ هُنَالِكَ السَّرَائِرَ
وَنَشَرْتُ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ
طُوبَى لِمَنْ يَأْخُذُ بِالْيَمِينِ
وَالْوَيْلُ لِلْأَخِذِ بِالشَّيْءِ
وَالْوِزْنُ بِالْقِسْطِ فَلَا ظُلْمَ وَلَا
فَبَيْنَ نَاجٍ رَاجِحٍ مِيزَانُهُ

❁ أيها المذنب في الخلوات: إن غبت عن أنظار الناس فلن تغيب عن

نظر الله، إن غبت عن رؤية الناس فلن تغيب عن رؤية الله ﴿الْزَيْعَمُ بِأَنَّ اللَّهَ

يَرَى ۝١٤﴾ [العلق: ١٤].

إن غبت عن علم الناس فلن تغيب عن علم الله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا
خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ
يَنْتَبِهُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿يَعْلَمُ
خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ۝١١﴾ [غافر: ١٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ

وَنَعَلَهُ مَا تُوسَّوُسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يُلَاقَى الْمُتَلَقِيَانِ
عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ﴿١٨﴾ [ق:
١٦-١٨].

إن غبت عن سمع الناس فلن تغيب عن سمع الله ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي
تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿١﴾
[المجادلة: ١].

﴿فيا أيها المسلم: حافظ على نظرك فلا تنظر إلى محرّم، وحافظ على
سمعك فلا تسمع محرّمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْغُولًا﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]. حافظ على جوارحك فلا
تفعل محرّمًا، ولا تنظر إلى صغر المعصية وتحسب الأمر هينًا، ولكن انظر
إلى من تعصي، واتّق معاصي الله في الخلوات، فإن الشاهد هو الحاكم
جل وعلا وهو أحكم الحاكمين، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وأخيراً أقول: هذا عمل بشري معرض للخطأ والزلل وهو جهد المقل
 أسهمت فيه بعمل متواضع، وأسميته «**التحذيرات من ذنوب الخلوات**»
وأقول كما قال الحريري رحمه الله:

وإِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدِّ الْخَلَا فَجَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا
 ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب
 الرحيم.

| | |
|-------------------|--------------------|
| يا رب أنت رجائي | وفيك حسنت ظني |
| يا رب فاغفر ذنوبي | وعافني واعف عني |
| العفو منك إلهي | والذنوب قد جاء مني |
| والظن فيك جميل | حقق بحقك ظني |

وختاماً: أسأل الله تعالى بأسمائه الحُسنى وصفاته العلى أن يجعلنا من
 الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إن ربي لسميع الدعاء، وأرجو
 أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكِتَابُ سَائِقًا لِلْمُعْتَنِي بِهِ إِلَى الْخَيْرَاتِ حَاجِزًا لَهُ عَنْ أَنْوَاعِ
 الْقَبَائِحِ وَالْمُهْلِكَاتِ. وَأَنَا سَائِلٌ أَخَا انْتَفَع بِشَيْءٍ مِنْهُ أَنْ يَدْعُو لِي،
 وَلِوَالِدَيَّ، وَمَشَائِخِي، وَسَائِرِ أَحِبَّائِنَا، وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ. وَعَلَى اللَّهِ

الكَرِيمِ اعْتِمَادِي، وَإِلَيْهِ تَقْوِيضِي وَاسْتِنَادِي، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ،
وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١).

كتبه: جميل بن مسعد المليكي عفا الله عنه، حرر بتاريخ (١٩ / ٤ / ١٤٤٠ هـ).



(١) «رياض الصالحين» ت الفحل (ص: ٥).

تمهيد

تعريف الخلوات: الخلوات جمع خلوة، يقال: خلا المكان والشيء يُخلو يُخلو خُلُوًّا وخَلَاءً وأُخِلِيَ إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه، وهو خالٍ. والخلَاءُ مِنَ الْأَرْضِ: قَرَارٌ خَالٍ.

وَمَكَانٌ خَلَاءٌ: لَا أَحَدَ بِهِ وَلَا شَيْءَ فِيهِ. وَأُخِلِيَ الْمَكَانُ: جَعَلَهُ خَالِيًا. وَأَخْلَاهُ: وَجَدَهُ كَذَلِكَ. وَأُخِلِّيتُ، أَي: خَلَوْتُ.

وَحَلَا الرَّجُلُ وَأُخِلِيَ: وَقَعَ فِي مَوْضِعٍ خَالٍ لَا يُزَاحِمُ فِيهِ.

وَالْخَلَاءُ، مَمْدُودٌ: الْبَرَازُ مِنَ الْأَرْضِ. وَأَلْفَيْتُ فَلَانًا بَخَلَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ، أَي: بِأَرْضٍ خَالِيَةٍ. وَخَلَتِ الدَّارُ خَلَاءً إِذَا لَمْ يَبْقَ فِيهَا أَحَدٌ.

وَيُقَالُ: أَخْلَ أَمْرَكَ وَأَخْلُ بِأَمْرِكَ أَي تَفَرَّدَ بِهِ وَتَفَرَّغَ لَهُ.

وَحَلَا الرَّجُلُ بِصَاحِبِهِ وَإِلَيْهِ وَمَعَهُ: اجْتَمَعَ مَعَهُ فِي خَلْوَةٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤].

وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلرَّجُلِ: أَخْلُ مَعِيَ حَتَّى أَكَلِّمَكَ، أَي: كُنْ مَعِيَ خَالِيًا.

وَفِي حَدِيثِ الرَّؤْيَا: «أَلَيْسَ كُلُّكُمْ يَرَى الْقَمَرَ مُحْلِيًا بِهِ؟» (١) يُقَالُ: خَلَوْتُ بِهِ وَمَعَهُ وَإِلَيْهِ وَأَخْلَيْتُ بِهِ إِذَا انْفَرَدْتُ بِهِ، أَي: كُلُّكُمْ يَرَاهُ مُنْفَرِدًا لِنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ: «لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَيْهِ» (٢) « (٣) . وهذا أوان الشروع في المقصود، بعون الله الملك المعبود.

ذكر الله في الخلوات

إن ذكر الله في الخلوات، وخشيته في السر والجلوات، فضله عظيم، ونفعه عميم، بل إن ذلك من الخصال الموجبة للظلال، كما في الصحيحين (٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابُّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ

(١). أخرجه أبو داود (٤٧٣١) وابن ماجه (١٨٠) عَنْ أَبِي رَزِينِ الْعُقَيْلِيِّ رضي الله عنه وحسنه العلامة الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه.

(٣) «لسان العرب» (١٤ / ٢٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شَهْلُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ». ففي هذا الحديث: فضل الذكر والدعاء في الخلوات ، وفيه فضيلة البكاء من خشية الله تعالى وَفَضْلُ طَاعَةِ السِّرِّ لِكَمَالِ الْإِحْلَاصِ فِيهَا، وَخَصَّ النَّبِيُّ ﷺ الْخَالِيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ وَطَلَبِ الذِّكْرِ فَمَا كَانَ فِي حَالِ الْخُلُوةِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاسْتِشْعَارِ خَشْيَتِهِ حَتَّى تَفِضَّ عَيْنَاهُ فَإِنَّهُ خَالِصٌ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يَشُوبُهُ غَيْرُهُ. وقد روى الإمام أحمد في مسنده (١٠٥٦٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « لَا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ ». فهذا رَجُلٌ يَخْشَى اللَّهَ فِي سِرِّهِ، وَيَر_اقِبُهُ فِي خُلُوتِهِ، وَأَفْضَلُ الْأَعْمَالِ خَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ إِنَّمَا تَصْدُرُ عَنْ قُوَّةِ إِيمَانٍ وَمُجَاهَدَةٍ لِلنَّفْسِ وَالْهَوَى، فَإِنْ الْهَوَى يَدْعُو فِي الْخُلُوةِ إِلَى الْمَعَاصِي، وَلِهَذَا قِيلَ: إِنْ مِنْ أَعَزِّ الْأَشْيَاءِ الْوَرَعَ فِي الْخُلُوةِ.

وذكر الله يشمل ذكر عظُمته وبطشه وانتقامه وعقابه؛ والبكاء الناشيء عَنْ هَذَا هُوَ بَكَاءُ الْخَوْفِ، وَيَشْمَلُ ذِكْرَ جَمَالِهِ وَكَمَالِهِ وَبِرِّهِ وَلَطْفِهِ وَكَرَامَتِهِ

لأوليائه بأنواع البر والألطف، لا سيما برؤيته في الجنة، والبكاء الناشيء
عن هذا هو بكاء الشوق.

ويدخل في ذلك - أيضاً - : رَجُلٌ ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ مَعَهُ حَيْثُمَا كَانَ، فتذكر
معيته وقربه وإطلاعه عليه حيث كَانَ يَبْكِي حَيَاءً مِنْهُ، وَهُوَ مِنْ نَوْعِ
الْخَوْفِ أَيْضاً (١).

ومن أحسن الخلوات خلوات الليل، لأن الخلوات مظنة الدعوات
والليالي أعدت لذلك، حيث يسكن الخلق وينمحي عن القلوب
ذكرهم، ويصفو لذكر الله تعالى قلب الداعي، فمثل هذا الدعاء هو
المرجو الاستجابة لا ما يصدر عن غفلة القلوب عند تراحم الأشغال.

ولقد أحسن من قال :

إذا هجع النّوَامُ أسبَلت عِبرتي وأنشدت بيتاً وهو من لطف الشعر
أليس من الخسران أن ليالياً تمر بلا خير وتحسب من عمري

(١) انظر: «المنتقى شرح الموطأ» (٧/ ٢٧٣)، «شرح النووي على مسلم» (٧/ ١٢٣) «فتح

الباري لابن رجب» (٦/ ٥٠).

وقد روى الترمذي (٣٤٩٩) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٨) عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ ^(١) ؟ قَالَ: «جَوْفَ اللَّيْلِ الْآخِرِ» ^(٢) ، وَدُبُرِ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ.

وإنما كان جوف الليل أقرب للإجابة لكمال التوجّه، وفقد العلائق والعوائق، وكذلك أدبار الصلوات؛ لأن الصلاة مناجاة العبد لربه، ومحل مسألته من فضله، وبعد تمام العمل، يظهر الأمل.

وأخرج الترمذي (٣٥٦٠) عن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ».

فدلت هذه الأحاديث على فضل الذكر، وأن الدعاء في الليل مستجاب، حيث السكون والهدوء والناس نائمون؛ إلا عين باتت تطلع

(١) أَي: أَوْفَقُ إِلَى السَّمْعِ أَوْ أَقْرَبُ إِلَى الْإِجَابَةِ.

(٢) وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ جَوْفَ اللَّيْلِ إِذَا أُطْلِقَ، فَالْمُرَادُ بِهِ وَسْطُهُ، وَإِنْ قِيلَ: جَوْفُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَالْمُرَادُ وَسْطُ النِّصْفِ الثَّانِي، وَهُوَ السُّدُسُ الْخَامِسُ مِنْ أَسْدَاسِ اللَّيْلِ، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ النُّزُولُ الْإِلَهِيُّ. «جامع العلوم والحكم» ت الأرئووط (٢/ ١٤٥).

إلى السماء وتتفكر في خلق السماوات والأرض، يتعاضم الخالق في ذلك القلب، وتشتد الحاجة إلى رحمة الله؛ فيمد يديه مناجياً ربه أن ينجيه برحمته ويتغمده بمغفرته.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المستغفرين بالأسحار؛ فقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ آلِ إِبْرَاهِيمَ مَا يَجْعَلُونَ ۝١٧ وَيَاسْخَرُ لَهُمُ السَّمَوَاتُ ۝١٨﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٨].

فهم الأيقاظ في جنح الليل الذي يلف الناس من حولهم فإذا هم نائمون، المتوجهون إلى ربهم بالاستغفار والاسترحام لا يطعمون الكرى (١) إلا قليلاً، ولا يهجعون في ليلهم إلا يسيراً، فتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ ليأنسوا بربهم وهو ينزل في ثلث الليل الآخر ليفتح للداعين أبواب الإجابة، وللسائلين خزائن السماوات والأرض، وللمستغفرين سابغ رحمة، وللتائبين باب التوبة على مصراعيه.

(١) «الكرى» بفتح الحاء: النعاس ومبادئ النوم.

وقد جاء الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل كما في الصحيحين (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟». وروى مسلم في صحيحه (٢) عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ فِي اللَّيْلِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ خَيْرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلُّ لَيْلَةٍ». وفي هذا الحديث إثبات ساعة الإجابة في كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَتَضَمَّنُ الْحَثُّ عَلَى الدُّعَاءِ فِي جَمِيعِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ رَجَاءً مُصَادِفِهَا.

والليل كله مظنة الإجابة؛ فيستحب الدعاء في جميع ساعات الليل كله، رجاء أن يصادف ساعة الإجابة.

لكن جوف الليل الآخر الدعاء فيه أفضل وأرجى؛ كما دل على ذلك حديث أبي أمامة رضي الله عنه ولذلك قال أبو بكر الطرطوشي في «الدعاء

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٤) ومسلم (٧٥٨).

(٢) أخرجه: مسلم (٧٥٧) (١٦٦).

المأثور وآدابه » (ص ٦٨): والذي يختتم به الباب؛ أنه ليس بفقيه من كانت له إلى الله حاجة ثم نام عنها في الأسحار (١).

ورحم الله العلامة الحكمي إذ يقول:

وَقَدْ رَوَى الثَّقَاتُ عَنْ خَيْرِ الْمَلَأِ بَأْنُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَعَلَا
فِي ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَخِيرِ يَنْزِلُ يَقُولُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَيُقْبَلُ
هَلْ مِنْ مُسِيٍّ طَالِبٍ لِلْمَغْفِرَةِ يَجِدُ كَرِيماً قَابِلاً لِلْمَعْذِرَةِ
يَمُنُّ بِالْخَيْرَاتِ وَالْفَضَائِلِ وَيَسْتُرُّ الْعَيْبَ وَيُعْطِي السَّائِلَ

فعلى العبد أن يجأر إلى الله تعالى بالليل والنهار، والسر والعلانية في الخلوات والفلوات ، وأن يجود بالعبرات ويسيل الدموع في الخلوات والجلوات، وليعلم أن الله سميع قريب مجيب الدعوات.



(١) «بهجة الناظرين» للشيخ الهلالي (٢/ ٥٣٣).

(٢) انظر: أرجوزة «سلم الوصول إلى علم الأصول».

وجوب مراقبة الله

يَحِبُّ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ مُرَاقَبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ مَا يَأْتِي وَمَا يَدَعُ مِنَ الْأُمُورِ، لِأَنَّهُ مَسْئُولٌ عَنْ ذَلِكَ وَمُحَاسَبٌ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِأَنَّ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ مُسَجَّلٌ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وَمُرَاقَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ، قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: أَفْضَلُ الطَّاعَاتِ مُرَاقَبَةُ الْحَقِّ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ (١).

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في «مدارج السالكين» ص ٤٢١ : وَمِنْ مَنَازِلِ: ﴿إِيَّاكَ تَبَدُّ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِيثُ﴾ [الفاتحة: ٥] مَنَزِلَةُ الْمُرَاقَبَةِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] . وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤) ﴿[العلق: ١٤] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] ، وَقَالَ تَعَالَى:

(١) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٦/ ٣٣٧).

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩) [غافر: ١٩] . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَفِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** : أَنَّهُ «سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنِ الْإِحْسَانِ؟ فَقَالَ لَهُ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» .

الْمُرَاقَبَةُ تَعْرِيفُهَا: دَوَامُ عِلْمِ الْعَبْدِ، وَتَيَقُّنُهُ بِاطِّلَاعِ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ . فَاسْتَدَامَتْهُ هَذَا الْعِلْمُ وَالْيَقِينِ هِيَ الْمُرَاقَبَةُ وَهِيَ ثَمَرَةُ عِلْمِهِ بِأَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ رَقِيبٌ عَلَيْهِ، نَاطِرٌ إِلَيْهِ، سَامِعٌ لِقَوْلِهِ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَى عَمَلِهِ كُلِّ وَقْتٍ وَكُلِّ لَحْظَةٍ، وَكُلِّ نَفْسٍ وَكُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَالْغَافِلُ عَنْ هَذَا بِمَعْزِلٍ عَنْ حَالِ أَهْلِ الْبِدَايَاتِ ، فَكَيْفَ بِحَالِ الْمُرِيدِينَ؟ فَكَيْفَ بِحَالِ الْعَارِفِينَ؟ .

قَالَ الْجُرَيْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى التَّقْوَى وَالْمُرَاقَبَةَ: لَمْ يَصِلْ إِلَى الْكُشْفِ وَالْمُشَاهَدَةِ (١).

وَقِيلَ: مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي خَوَاطِرِهِ، عَصَمَهُ فِي حَرَكَاتِ جَوَارِحِهِ.

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ: مَتَى يَهْشُ الرَّاعِي غَنَمَهُ بِعَصَاهُ عَنْ مَرَاعِ الْهَلَكَةِ؟ فَقَالَ: إِذَا عَلِمَ أَنَّ عَلَيْهِ رَقِيًّا.

وَقَالَ الْجُنَيْدُ: مَنْ تَحَقَّقَ فِي الْمُرَاقَبَةِ خَافَ عَلَى فَوَاتِ حُظَّةٍ مِنْ رَبِّهِ لَا غَيْرَ.

وَقَالَ ذُو النُّونِ: عَلَامَةُ الْمُرَاقَبَةِ إِيْثَارُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَتَعْظِيمُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ، وَتَصْغِيرُ مَا صَغَّرَ اللَّهُ.

(١) هذه العبارة مشهورة عند الصوفية: وغاية التصوف عندهم: إنما هو الكشف والمشاهدة، بمعنى: أن يكشف لأحدهم اللوح المحفوظ فيقرأ فيه ما كان وما سيكون، وأن يشاهد الله تعالى فيراه رأي العين.

وهي عقيدة باطلة، والحق فيها ما اعتقده أهل السنة والجماعة - ومنهم العلامة ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - من أن الله تعالى ادخر رؤيته سبحانه للمؤمنين في الجنة. وانظر للفائدة: «مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة» العدد (٥٨ / ١١٧). «الرد على المنطقيين» لشيخ الإسلام (ص ٤٨٦). «فتح الباري» لابن رجب (١ / ١٦١). «شرح الأربعين النووية» آل الشيخ (ص: ٣٥).

وَقِيلَ: الرَّجَاءُ يُحَرِّكُ إِلَى الطَّاعَةِ، وَالْخَوْفُ يُبْعِدُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَالْمُرَاقَبَةُ تُؤَدِّيكَ إِلَى طَرِيقِ الْحَقَائِقِ.

وَقِيلَ: الْمُرَاقَبَةُ مُرَاعَاةُ الْقَلْبِ لِمَلَا حَظَةِ الْحَقِّ مَعَ كُلِّ خَطَرَةٍ وَخُطْوَةٍ.

وَقَالَ الْجَرِيرِيُّ: أَمَرْنَا هَذَا مَبْنِيٍّ عَلَى فَضْلَيْنِ: أَنْ تُلْزِمَ نَفْسَكَ الْمُرَاقَبَةَ لِلَّهِ، وَأَنْ يَكُونَ الْعِلْمُ عَلَى ظَاهِرِكَ قَائِمًا.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْخَوَّاصُ: الْمُرَاقَبَةُ خُلُوصُ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقِيلَ: أَفْضَلُ مَا يُلْزِمُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ: الْمُحَاسَبَةُ وَالْمُرَاقَبَةُ، وَسِيَاسَةُ عَمَلِهِ بِالْعِلْمِ.

وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ لِأَبِي عُمَرَ النَّيْسَابُورِيِّ: إِذَا جَلَسْتَ لِلنَّاسِ فَكُنْ وَاعِظًا لِقَلْبِكَ وَنَفْسِكَ، وَلَا يَغُرَّتْكَ اجْتِمَاعُهُمْ عَلَيْكَ، فَإِنَّهُمْ يُرَاقِبُونَ ظَاهِرَكَ، وَاللَّهُ يَرَاقِبُ بَاطِنَكَ.

وَأَرْبَابُ الطَّرِيقِ جُمُعُونَ عَلَى أَنَّ مُرَاقَبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَوَاطِرِ: سَبَبٌ لِحِفْظِهَا فِي حَرَكَاتِ الظَّوَاهِرِ. فَمَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي سِرِّهِ، حَفِظَهُ اللَّهُ فِي حَرَكَاتِهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ.

وَالْمُرَاقَبَةُ هِيَ التَّعَبُّدُ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ، الْحَفِيزِ، الْعَلِيمِ، السَّمِيعِ، الْبَصِيرِ، فَمَنْ عَقَلَ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ، وَتَعَبَّدَ بِمُقْتَضَاهَا: حَصَلَتْ لَهُ الْمُرَاقَبَةُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ

قال السعدي رحمه الله: في «تفسير أسماء الله الحسنى» (ص: ٢٠٧) الرقيب والشهيد من أسماؤه الحسنى وهما مترادفان، وكلاهما يدل على إحاطة سمع الله بالمسموعات وبصره بالمبصرات، وعلمه بجميع المعلومات الجليّة والخفية، وهو الرقيب على ما دار في الخواطر، وما تحركت به اللواحق، ومن باب أولى الأفعال الظاهرة بالأركان.

والرقيب المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ولهذا كانت المراقبة التي هي من أعلى أعمال القلوب هي التعبد لله باسمه الرقيب الشهيد، فمتى علم العبد أن حركاته الظاهرة، والباطنة قد أحاط الله بعلمها، واستحضر هذا العلم في كل أحواله، أوجب له ذلك حراسة باطنة عن كل فكر، وهاجس ييغضه الله، وحفظ ظاهره عن كل قول أو فعل يسخط الله وتعبد بمقام الإحسان فعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه. اهـ

واعلم أخي المسلم : أن الله أعد لمن راقبه وخشيه أجراً عظيماً فقال سبحانه وتعالى: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]

وخص من خشيه في الغيب والسر فقال: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [٣١] هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ [٣٢] مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ [٣٣] ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ [٣٤] هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا [ق: ٣١ - ٣٥]

أما أولئك الذين خف قدر الله في قلوبهم وضعف يقينهم وإيمانهم فسارعوا في ارتكاب الموبقات والتورط في الذنوب والمعاصي في أوقات الخلوات ولم يراعوا حق رب الأرض والسموات فنذركم بقول الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

وبقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَحَنَّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۚ﴾ (١٦) ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۚ﴾ (١٧) ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۚ﴾ (١٨) [ق: ١٦-١٨].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «أَسْأَلُكَ خَشْيَتِكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ (١)»، فأكثر أخي من هذا الدعاء واستعن بالله جل وعلا ، فما أطيب الحياة بطاعة الله ، وما أَلْذها بمراقبة الله، وتأمل وصايا السلف الصالح وأقوالهم في هذا الباب العظيم ، ترى ما يثلج الصدور، وينير العقول،

(١) أخرجه أحمد والنسائي عن عمار بن ياسر وصححه الألباني .

ويذكرك بالله ،ودونك هذه الآثار عسى أن تجد فيها بغيتك ، وتنبير لك
دربك.

قال ابن المبارك رحمه الله لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيرها فقال:
كن أبدا كَأَنَّكَ ترى الله تعالى .

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة مَن لا تخفى عليه خافية، وعليك
بالرجاء مَن يملك الوفاء.

قال رجل للجنيذ: بم أستعين على غَضِّ البصر؟ فقال: بعلمك أنَّ نظر
الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

قال حميد الطويل لسليمان بن علي: عظمي، فقال: لئن كنت إذا عصيت
خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا
يراك فلقد كفرت (١).

قال ابن الجوزي رحمه الله: الحقّ تعالى - أقرب إلى عبده من حبل الوريد. لكنّه عامل العبد معاملة الغائب عنه البعيد منه، فأمر بقصد نيّته، ورفع اليدين إليه، والسؤال له. فقلوب الجهّال تستشعر البعد، ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحقّقت مراقبتهم للحاضر النّاظر لكفّوا الأكفّ عن الخطايا، والمتيقّظون علموا قربهم فحضرتهم المراقبة، وكفّتهم عن الانبساط.

قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلمي إن نفع
من راقب الله نزع
ما الذلّ إلا في الطمع
عن سوء ما كان صنع
فمراقبة الله حصن حصين بينك وبين المعاصي والذنوب ، فراقب الله
واعلم أن الله علام الغيوب قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ

سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴾ [التوبة: ٧٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ؕ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ؕ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ؕ إِنَّكَ أَنْتَ

عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١٣٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٣٧﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ [الملك: ١٢ - ١٤].

من الرجولة والفتوة مراقبة الله في الخلوات

الرجولة في أظهر معانيها تعني اتّصاف الإنسان بما يوصف به الرّجال عادة من نحو تحمّل الأعباء الثّقال ومن أبرز ذلك تحمّل الرّسل الكرام لأعباء الرّسالة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]، ومن ذلك صدق الرّجل فيما عاهد عليه قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ومنها حبّ التّطهّر قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]، ومنها أنّ الرّجل لا تشغله العوارض عن ذكر الله والعمل للآخرة،

مصدق ذلك قول الله تعالى: ﴿رَجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ هَيْدَرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] ، فالرجل الحق على ذلك هو من يتحمل الأعباء وينهض بها ويصدق العهد ويحب التطهر ولا تشغله سفاسف الأمور عن معاليها (١) ، ومن أعلى صفات الرجولة الإيمان بالله والخوف من عذاب الله والصدق مع الله، وقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلی الله علیه وآله وسلم قَالَ « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الْإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابُّ نَشَأَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ (٢) ».

قال العيني رحمته الله في «عمدة القاري» (٥ / ١٨٠) : و- فيه - فضيلة ذكر الله في الخلوات مع فيضان الدمع من عينيه.

(١) «نصرة النعيم» (٥ / ٢٠٤٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١).

فتأمل رعاك الله: أن من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات حسن وجهال فقال إني أخاف الله، فهذه هي الرجولة الحقيقية التي يعلم عندها الرجال، ويُحِبُّ عندها الأبطال.

فالرجال والأبطال هم الذين يكبحون شهواتهم ويقومون بطاعة ربهم ولا يقدمون شيئاً على طاعة الله وقد أثنى الله عز وجل على من هذا شأنه فقال عز من قائل: ﴿ **فِي مِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ الْإِيمَانِ لُحْمٌ يُدْرِكُ الْوُزْنَ وَلَئِنْ أَتَى الْوُزْنَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنَ الْإِيمَانِ لُحْمٌ يُدْرِكُ الْوُزْنَ وَلَئِنْ أَتَى الْوُزْنَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِّنَ الْإِيمَانِ لُحْمٌ يُدْرِكُ الْوُزْنَ** ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨] فَقَوْلُهُ: ﴿ **رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] لِيَجْزِيَهمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٨] فِيهِ إِشْعَارٌ بِهِمَمِهِمُ السَّامِيَةِ، وَنِيَّاتِهِمْ وَعَزَائِمِهِمُ الْعَالِيَةِ، الَّتِي بِهَا صَارُوا عُمَّارًا لِلْمَسَاجِدِ، الَّتِي هِيَ بَيُوتُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَمَوَاطِنُ عِبَادَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَتَوْحِيدِهِ وَتَنْزِيهِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ **مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ** ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

قال الطبري رحمه الله: يقول تعالى ذِكْرُهُ: لَا يَشْغُلُ هَؤُلَاءِ الرَّجَالَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ فِي هَذِهِ الْمَسَاجِدِ الَّتِي أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ عَنْ ذِكْرِ اللهِ فِيهَا وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ.

وقال السعدي رحمه الله: أي: يسبح فيها الله، رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، ﴿لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةً﴾ وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه؛ لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ اللهِ وَلِقَائِهِ الصَّلَاةِ وَلِإِنَاءِ الزَّكَاةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

قال الإمام البخاري رحمه الله: بابُ التجارة في البرِّ وقوله: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِمُهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ وقال قتادة: كَانَ الْقَوْمُ يَتَبَايعُونَ وَيَتَّجِرُونَ،

ولكنهم إذا نابهم حق من حقوق الله؛ لم تُلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، حتى يؤدّوه إلى الله.

ويقول ابن الوردي رحمه الله:

واتق الله فتقوى الله ما
 ليس من يقطع طرقاً بطلاً
 فالرجولة الحقيقية تكون في طاعة الله رب العالمين وطاعة نبيه الأمين،
 وتكون بالتمسك بهذا الدين، فإن فعلت ذلك فأنت من الرجال
 المخلصين والأبطال المتقين. والرجولة الحقيقية تكون بتقوى الله في السر
 والعلن والبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.



تقوى الله في الخلوات والجلوات

روى الترمذي في سننه (١) عَنْ أَبِي ذَرٍّ وَمَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ **رضي الله عنهما** : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ **ﷺ** قَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ» .

قال ابن رجب **رحمه الله** في «جامع العلوم والحكم» : فهذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده، فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَتَّقُوهُ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَالتَّقْوَى وَصِيَّةُ اللَّهِ لِلأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وأصل التقوى : أَنْ يجعل العبد بينه وبينَ ما يخافُه ويحذره وقايةً تقيه منه، فتقوى العبد لربه أَنْ يجعل بينه وبينَ ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تقيه من ذلك وهو فعل طاعته واجتنابُ معاصيه.

(١) أخرجه: الترمذي (١٩٨٧) وهو حديث صحيح.

وتارة تُضافُ التقوى إلى اسم الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ

الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (١٦)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)،

فإذا أضيفت التقوى إليه - سبحانه وتعالى -، فالمعنى: اتقوا سخطه

وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الديني

والأخروي، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، وقال تعالى: ﴿هُوَ

أَهْلُ النَّفْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (١٩)، فهو سبحانه أهل أن يُحشى ويهاب ويُجَلَّ

ويعظم في صدور عباده حتى يعبدوه ويُطيعوه، لما يستحقه من الإجلال

والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش، وشدة البأس،

وتارة تُضافُ التقوى إلى عقاب الله وإلى مكانه، كالنار، أو إلى زمانه،

كيوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢٠)

[آل عمران: ١٣١]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ

أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٢١) [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ

فِيهِ إِلَى اللَّهِ ﴿البقرة: ٢٨١﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ

﴿١﴾ [المجادلة: ٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا

﴿البقرة: ٤٨﴾. ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك

المحرمات والشبهات، وربما دَخَلَ فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك

المكروهات، وهي أعلى درجات التقوى (١).. اهـ

وقد أورد ابن قدامة المقدسي رحمه الله في كتابه «التواوين» أن رجلاً جاء إلى

إبراهيم بن أدهم فقال له: يا أبا إسحاق! إني مسرف على نفسي، فاعرض

علي ما يكون لها زاجراً ومستنقذاً لقلبي.

قال: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها لم تضرك معصية ولم توبقك

لذة.

قال: هات يا أبا إسحاق!.

قال: أما الأولى: فإذا أردت أن تعصي الله فلا تأكل رزقه.

(١) في «جامع العلوم والحكم» ت ماهر الفحل (٢ / ٤٦٨).

قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه؟.

قال له: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟.

قال: لا، هات الثانية!.

قال: وإذا أردت أن تعصيه فلا تسكن شيئاً من بلاده، قال الرجل: هذه أعظم من الأولى! يا هذا! إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له فأين أسكن؟ قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟.

قال: لا، هات الثالثة.

قال: إذا أردت أن تعصيه وأنت تحت رزقه وفي بلاده فانظر موضعاً لا يراك فيه مبارزاً له فاعصه فيه. قال: يا إبراهيم! كيف هذا وهو مطلع على ما في السرائر؟.

قال: يا هذا! أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟!.

قال: لا، هات الرابعة.

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أخرني حتى أتوب
توبة نصوحاً، وأعمل لله عملاً صالحاً. قال: لا يقبل مني.

قال: يا هذا! فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب وتعلم أنه إذا
جاء لم يكن له تأخير فكيف ترجو وجه الخلاص؟!.

قال: هات الخامسة.

قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذونك إلى النار فلا تذهب
معه.

قال: لا يدعونني ولا يقبلون مني.

قال: فكيف ترجو النجاة إذا؟!.

قال له: يا إبراهيم! حسبي، أنا أستغفر الله وأتوب إليه.

ولزمه في العبادة حتى فرق الموت بينهما (١) .

فاحذر أيها العبد: أن تكون ممن يراقبون العباد وينسون رب العباد، يخشون الناس وينسون رب الناس، يستعظمون نظر المخلوق على هوانه ويستخفون بنظر الخالق مع علو شأنه.

فيا من تعصي الله، أي أرض تُثقلك، وأي سماء تظلك، إلا أرض الله وسماؤه، وأي مكان يحميك من أن يراك الله ويطلع عليك وينظر إليك فهو تعالى يراك، فاجعل له في قلبك وقاراً، وإذا حدثتك نفسك بالمعصية أياً كانت هذه المعصية فقل لها: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤) [العلق: ١٤].

أخي الحبيب: قبل أن تعصي الله تذكر من أنت؟! من أنت أيها المسكين حتى تعصي إله الأولين والآخرين ورب العالمين؟! من أنت أيها الضعيف الذي لا تملك لنفسك نفعاً ولا ضرراً ولا حولاً ولا طولاً حتى تعصي القوي العزيز الذي خضع له كل شيء، وملأت كل شيء عظمته،

(١) في «جامع العلوم والحكم» ت ماهر الفحل (٢ / ٤٦٨).

وقهر كل شيء ملكه، وأحاطت بكل شيء قدرته، تذكر من أنت ومن هو العظيم الذي تعصيه وأنت فقير محتاج إليه؟! وبقدر ما يعظم قدر الله في قلبك يعظم مكانك عنده، **قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾** [الحج: ٣٠] (١).

أخي الحبيب: عليك قبل أن تعصي الله عز وجل أن تتفكر في هذه الدنيا وحقارتها وقلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها، وسرعة انقضائها . وتتفكر في أهلها وعشاقها وهم صرعى حولها، قد عذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم مر الشراب، وأضحكتهم قليلاً وأبكتهم كثيراً وطويلاً.

* عليك قبل أن تعصي الله عز وجل أن تتفكر في الآخرة ودوامها وأنها هي الحياة الحقيقية وهي دار القرار ومحط الرحال ومنتهى السير.

(١) «فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب» (٢ / ١٠١).

✳ عليك قبل أن تعصي الله أن تتفكر في النار وتوقدها واضطرامها وبعد قعرها وشدة حرها وعظيم عذاب أهلها ... عليك أن تتفكر في أهلها وهم في الحميم على وجوههم يسحبون وفي النار كالخطب يسجرون .

✳ عليك قبل أن تعصي الله أن تتفكر في الجنة وما أعد الله لأهل طاعته فيها مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المفصل الكفيل بأعلى أنواع اللذة من المطاعم والمشارب والملابس والصور ، والبهجة والسرور ، والتي لا يفرط فيها إلا إنسان محروم .

أخي الحبيب: قبل أن تعصي الله ، تذكر كم ستعيش في هذه الدنيا ، ستين سنة ، ثمانين سنة ، مائة سنة ، ألف سنة . ثم ماذا ؟ ثم مرت بعده جنات النعيم أو نار الجحيم والعياذ بالله .

أخي الحبيب: تيقن حق اليقين أن ملك الموت كما تعداك إلى غيرك فهو في الطريق إليك وما هي إلا أعوام أو أيام أو لحظات فتصبح وحيداً فريداً في قبرك لا أموال ولا أهل ولا أصحاب فتذكر ظلمة القبر ووحدته ، وضيقه ووحشته ، وهول مطلعه وشدة ضغطته .

تذكر يوم القيامة يوم العرض على الله ، عندما تمتلئ القلوب رعباً
وعندما تتبرأ من بنيك وأمك وأبيك وصاحبتك وأخيك ، تذكر تلك
المواقف والأهوال ، تذكر يوم توضع الموازين وتتطاير الصحف ، كم في
كتابك من زلل وكم في عملك من خلل ، تذكر إذا وقفت بين يدي
الملك الحق المبين الذي كنت تهرب منه ، ويدعوك فتصد عنه ، وقفت
وبيدك صحيفة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها ، وبأي لسان
تجيب الله حين يسألك عن عمرك وشبابك وعملك ومالك ، وبأي قدم
تقف بين يديه ، وبأي عين تنظر إليه ، وبأي قلب تجيب عليه عندما
يقول لك عبدي : استخففت بنظري إليك ، جعلتني أهون الناظرين
إليك ، ألم أحسن إليك ، ألم أنعم عليك ، فلماذا تعصني وأنا أنعم عليك
!؟ .

أخي الحبيب: أفلا تصبر على طاعة الله هذه الأيام القليلة ، وهذه
اللحظات السريعة لتفوز بعد ذلك بالفوز العظيم وتتمتع بالنعيم
العظيم. وتتمتع بالنعيم المقيم .

أخي الحبيب: إن هناك أناساً اعتقدوا أنهم قد خلقوا عبثاً وتركوا سدى ، فكانت حياتهم لهواً ولعباً ، تعلوا أبصارهم الغشاوة ، وفي آذانهم وقراً عن سماع الهدى ، بصائرهم مطموسة ، وقلوبهم منكوسة ، أعينهم متحجرة وأفئدتهم معمية ، تجد في مجالسهم كل شيء إلا القرآن وذكر الله . هربوا من الله وهم عبيده وبين يديه وفي قبضته ، دعاهم فلم يستجيبوا له واستجابوا لنداء الشيطان ولرغباتهم وأهوائهم فيا عجبا من هؤلاء ! ، كيف يلبون دعوة الشيطان ويتركون دعوة الرحمن ! أين ذهبت عقولهم . . . ؟ ! ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي

فِي الصُّدُورِ ٤٦ ﴿ [الحج: ٤٦] ما الذي فعله الله بهم حتى عصوه ولم يطيعوه ؟ ! ألم يخلقهم ألم يرزقهم ألم يعافهم في أموالهم وأجسامهم ؟ ! أغر هؤلاء حلم الحليم ؟ ! أغرهم كرم الكريم ؟ ! ألم يخافوا أن يأتيهم الموت وهم على المعاصي عاكفون ؟ ! ﴿ **أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ**

مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ١١ ﴿ [الأعراف: ٩٩] . فأحذر أخي الحبيب كل الحذر أن تكون من هؤلاء ! وترفع بنفسك عنهم واعمل لما

خلقت له فإنك والله قد خلقت لأمر عظيم . قال تعالى : **قَالَ تَعَالَى: ﴿**

وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦] .

قد هيئوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل
أخي الحبيب: يا من تعصي الله !! عد إلى ربك واتق النار ، اتق السعير ،
 إن أمامك أهوالاً وصعاباً ، إن أمامك نعيماً أو عذاباً ، إن أمامك ثعابين
 وحيات وأموراً هائلات ، والله الذي لا إله إلا هو لن تنفَعك
 الضحكات ، لن تنفَعك الأغاني والمسلسلات والأمور التافهات ، لن
 تنفَعك الصحف والمجلات ، لن ينفعك الأهل والأولاد ، لن ينفعك
 الإخوان والأصحاب، لن تنفَعك إلا الحسنات والأعمال الصالحات (١).

فيا أيها العاصي! تذكر رقابة الله يا مرتكب المعاصي مختلفاً عن أعين
 الخلق: أين الله؟! أين الله؟! ما أنت -والله- إلا أحد رجلين؛ إن كنت
 ظننت أن الله لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك فكيف تجترئ

عليه، وتجعله أهون الناظرين إليك ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا

(١) «أرشيف ملتقى أهل الحديث» (٢/ ٨٠٨).

يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴿١٠٨﴾ [النساء: ١٠٨].
يدخل بعض الناس غابة ملتفة أشجارها لا تكاد ترى الشمس معها، ثم
يقول: لو عملت المعصية -الآن- من يراني؟ فيسمع هاتفاً بصوت يملأ
الغابة ويقول: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾**﴾ [الملك: ١٤] بلى
والله!

يا متتهكاً حرمت الله في الظلمات في الخلوات في الفلوات، بعيداً عن
أعين المخلوقات: أين الله؟! هل سألت نفسك هذا السؤال، أين الله،
﴿**الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾**﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠] إلى من يملأ عينه وأذنه ويضيع وقته، حتى
في ثلث الليل الآخر، يملأ ذلك بمعاصي الله؛ أين الله؟!

فيا أيها المؤمن: إن عين الله تلاحقك أينما ذهبت، وفي أي مكان حللت؛
في ظلام الليل وراء الجدران وراء الحيطان في الخلوات في الفلوات، ولو
كنت في داخل صخور صم.

فخف مولاك في الخلوات وأجار
وراقب أمره في كل حال
ولا تجنح إلى العصيان تدفع
وقال آخر:

إليه بانتحابك وابتهالك
يفرج في القيامة ضيق حالك
إلى ليل من الأحزان حالك

من عامل الله بتقواه
سقاها كأساً من لذيذ المنى
وفق الله الجميع لكل ما يحب ويرضى.

وكان في الخلوات يخشاه
يغنيه عن لذة دنياه

من حفظ الله في الخلوات حفظه الله في الفلوات

روى الترمذي في «جامعه» (١) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قَالَ: كنت خلف
النبي ﷺ يوماً، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ
، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ
بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا

(١) أخرجه: الترمذي (٢٥١٦). وأخرج اللفظ الثاني: أحمد (١ / ٣٠٧).

بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ (١) .

وفي رواية غير الترمذي: «احْفَظِ اللَّهَ تَجِدَهُ أَمَامَكَ، تَعْرِفِ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَاعْلَمْ: أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ: أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا».

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم»: فقلوله **عليه السلام** «احْفَظِ اللَّهَ» يعني: احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره، ونواهيه، وحفظ ذلك: هو الوقوف عند أوامره بالامتثال، وعند نواهيه بالاجتناب، وعند حدوده، فلا يتجاوز ما أمر به، وأذن فيه إلى ما نهى عنه، فمن فعل ذلك، فهو من الحافظين لحدود الله الذين مدحهم الله في كتابه، وقال - **عليه السلام**

- ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ

(١) أي فرغ من الأمر وجفت كتابته، كناية عن تقدم كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد

بعيد. «دليل الفالحين» (١ / ٢٨٨).

مُنِيبٌ ﴿٣٣﴾ [ق: ٣٢ - ٣٣] . وفسر الحفيظ هاهنا بالحافظ لأوامر الله،
وبالحافظ لذنوبه ليتوب منها.

وقوله **عَلَيْكَ اللَّهُ** : «يحفظك» يعني: أن من حفظَ حدود الله، وراعى حقوقَه،
حفظه الله، فإنَّ الجزء من جنس العمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي

أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] ، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] ،
وقال: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] (١) . ومعنى هذا : أن من
حفظ حدود الله، وراعى حقوقه حفظه الله، في الدنيا من الآفات
والمكروهات، وفي الآخرة من أنواع العقوبات، جزاء وفاقاً.

فكلما حفظ الإنسان دين الله حفظه الله.

وحفظ الله لعبده الحافظ لدينه، يكون في أمرين:

(١) «جامع العلوم والحكم» ت ماهر الفحل (٢ / ٥٤٩)

الأول: حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفّاه على الإيمان.

هذا هو الأمر الأول، وهو أعظمهما وأشرفهما، وهو أن يحفظ الله عبده من الزيغ والضلال؛ لأن الإنسان كلما اهتدى زاده الله هدى، وكلما ضلّ ازداد ضلالاً.

الثاني: حفظ الله للعبد في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، ومن حفظ الله في صباه وقوته حفظه الله في حال كبره وضعف قوته، ومتّعه بسمعه وبصره وحوله وقوته وعقله.

إذن من حفظ حدود الله حفظه الله في دينه، وفي بدنه وولده وأهله وماله.

فينبغي للعبد أن يحفظ حدود الله ودينه وشرعه، وأن يحافظ على هذا الدعاء العظيم في الصباح والمساء ، وهو ما رواه أحمد في «مسنده» عن

عَبَدَ اللَّهُ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُ هَوْلًا الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»: قَالَ وَكِيعٌ: يَعْنِي الْحَسَفَ (١).

وَجَاءَ عِنْدَ الْحَاكِمِ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو: «اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا، وَلَا تُشْمِتْ بِي عَدُوًّا حَاسِدًا، وَاللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ خَزَائِنُهُ بِيَدِكَ» (٢).

فعلى العبد أن يأخذ بأسباب حفظ الله تعالى له ويحرص عليها، وأعظمها توحيد الله تعالى وفعل ما يحبه واجتناب ما يسخطه ومن ذلك

(١) رواه أحمد (٤٧٨٥) وأبو داود (٥٠٧٤) وابن ماجه (٣٨٧١) وهو صحيح.

(٢) رواه الحاكم (١ / ٥٢٥) وابن حبان (٩٣٤) وحسنه الألباني في الصحيحة (١٥٤٠).

المحافظة على مثل هذه الأدعية الجامعة ، وأذكار الصباح والمساء ليحظى العبد من ربه بحفظ دينه وإيمانه من الشبهات المردية والبدع المضلة والشهوات المحرمة وبحفظ دينه عند موته فيتوفاه على الإسلام كما يحظى من ربه بحفظ دنياه وبدنه وولده وماله وذريته، ولا حافظ للعباد

في دينه ودنياه وجميع شؤونه إلا الله تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظٍ وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّحِيمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]

ومن تخلى الله عن حفظه فإنه هالك ضائع ولا حافظ له من بعد الله وعلى حسب ما عند العبد من الإيمان واليقين والتوكل يكون حفظ الله له

وتكون مدافعة الله عنه بلطفه قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا

﴾ [الحج: ٣٨] (١) .

نسأل الله أن يحفظنا بحفظه وهو خير الحافظين وأن يحفظنا بما يحفظ به عباده الصالحين .

تفسير بعض الآيات بحفظ الله في الخلوات

﴿قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ (١٢) الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٤) [يونس: ٦٢ - ٦٤] قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾،

يعني: المؤمنين، ويقال: أحباء الله، وهم حملة القرآن والعلم. ويقال: الذين يجتنبون الذنوب في الخلوات، ويعلمون أن الله تعالى مُطَّلِعٌ عليهم.

قال العلامة الشوكاني **رحمته الله**: ثُمَّ لَمَّا بَيَّنَّ سُبْحَانَهُ إِحَاطَتَهُ بِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ تَقْوِيَةٌ لِقُلُوبِ الْمُطِيعِينَ، وَكَسْرٌ لِقُلُوبِ الْعَاصِينَ، ذَكَرَ حَالِ

الْمُطِيعِينَ، فَقَالَ: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ﴾ الْوَلِيُّ فِي اللَّغَةِ: الْقَرِيبُ. وَالْمُرَادُ بِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ: خُلَصَّ

الْمُؤْمِنِينَ، كَأَنَّهُمْ قُرُبُوا مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ. وَقَدْ

فَسَّرَ سُبْحَانَهُ هُؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

﴾. اهـ

قال أبو جعفر الطبري رحمته الله: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: الَّذِينَ صَدَقُوا اللَّهَ

وَرَسُولَهُ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَكَانُوا يَتَّقُونَ اللَّهَ بِإِدَاءِ فَرَائِضِهِ

وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، (١).

وقال تعالى: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ

أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ

ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) ﴿ [ق: ٣١ - ٣٥]

قال الإمام الطبري رحمته الله: يَعْنِي تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ

غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وَأَذْنِيتِ الْجَنَّةِ وَقُرْبَتْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ، فَخَافُوا عُقُوبَتَهُ بِإِدَاءِ

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ٥١٩)، «تفسير الطبري» (١٢/ ٢١٣).

فَرَائِضِهِ، وَاجْتَنَابِ مَعَاصِيهِ وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

اهـ

وَعَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ قَالَ: الرَّجُلُ يَذْكُرُ ذُنُوبَهُ فِي الْخَلَاءِ فَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهَا.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمته الله: وَفُسِّرَ الْحَفِيفُ هَاهُنَا بِالْحَافِظِ لِأَوَامِرِ اللَّهِ، وَبِالْحَافِظِ لِذُنُوبِهِ لِيَتُوبَ مِنْهَا، وَكِلَاهُمَا يَدْخُلُ فِي الْآيَةِ.

قال العلامة السعدي رحمته الله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والخبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، الممثلين لأوامر ربهم، المنقادين له، ويقال لهم على وجه التهئة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ

حَفِيفٍ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها، مما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، هي التي وعد الله كل أواب أي: رجع إلى الله، في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه، وخوفه، ورجائه. ﴿حَفِيفٍ﴾ أي: يحافظ

على ما أمر الله به، بامثاله على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل الوجوه، حفيظ لحدوده. ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية، وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة، خشية الله في الغيب والشهادة (١) .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٣) [الملك: ١٢] .

وصف الله تعالى أهل الإيمان، وهم ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل معنيين،

(١) انظر: «تفسير الطبري»، «الدر المشثور في التفسير بالمأثور» تفسير ابن رجب الحنبلي، تفسير السعدي، عند الآية الكريمة.

أحدهما: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ الذي أخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فآمنوا بذلك، وخشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة .

والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم، ومنه تقول العرب: فلان سالم الغيب، أي: لا يضر، فالمعنى يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم، وانفرادهم، فلاحتمال **الأول:** مدح بالإخلاص والإيمان، **والثاني:** مدح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أخرى أن يعملوها علانية^(١).

وقال في البحر المحيط : قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾: أي: الذي أخبروا به من أمر المعاد وأحواله، أو غائبين عن أعين الناس، أي في خلواتهم، كقوله: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»^(٢).

قال الشوكاني رحمه الله: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ لما فرغ سبحانه من ذكر أحوال أهل النار ذكر أهل الجنة، و ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال

(١) «تفسير ابن عطية» (٥ / ٣٤٠).

(٢) «البحر المحيط» في التفسير (١٠ / ٢٢٥).

مِنَ الْفَاعِلِ أَوْ الْمُفْعُولِ، أَي: غَائِبِينَ عَنْهُ، أَوْ غَائِبًا عَنْهُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ عَذَابَهُ وَلَمْ يَرَوْهُ فَيُؤْمِنُونَ بِهِ خَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ ﴿حَالُ كَوْنِهِمْ غَائِبِينَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ وَذَلِكَ فِي خَلَوَاتِهِمْ، أَوْ الْمُرَادُ بِالْغَيْبِ كَوْنُ الْعَذَابِ غَائِبًا عَنْهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ إِنَّمَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَتَكُونُ الْبَاءُ عَلَى هَذَا سَبَبِيَّةً لَهُمْ مَغْفِرَةً عَظِيمَةً يَغْفِرُ اللَّهُ بِهَا ذُنُوبَهُمْ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ وَهُوَ الْجَنَّةُ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [ق: ٣٣] (١). وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ فيه قولان:

القول الأول: أي: يخشون ربهم وهم لا يرونه. والقول الثاني: أي: يخشون ربهم وهم غيب عن أعين الناس، وهم في الخلوات والفلوات منفردون بعيدون عن الناس، فيراقبون الله في السر ويراقبون الله في العلن، فلا يراءون الناس ويظهرون أمامهم الأعمال الصالحة، إنما سرهم وعلاانيتهم سواء.

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٥ / ٣١٢).

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨] أي: يخشونه تعالى غائبين عن عذابه أو عن الناس في خلواتهم أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم^(١). ومثلها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ فأما خشية الله في الغيب والشهادة فالمعنيُّ بهما: أن العبد يخشى الله سرًّا وعلانيةً وظاهرًا وباطنًا، فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشية الله في الغيب إذا غاب عن أعين الناس.

وقد مدح الله من يخافه بالغيب قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ، وقال: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ

(١) «تفسير أبي السعود» (٧ / ١٤٩).

بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ [ق: ٣٣] وقال تعالى: **﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ﴾**
بِالْغَيْبِ ﴿٩٤﴾ [المائدة: ٩٤].

وقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾** [الملك: ١٢]... وكان بعض السلف يقول لإخوانه: زهدنا الله وإياكم في الحرام زهادة من قدرَ عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه.

وقال بعضهم: ليس الخائف من بكى وعصر عينيه، إنما الخائف من ترك ما انتهى من الحرام إذا قدرَ عليه، ومن هنا عظمَ ثواب من أطاعَ الله، سرًّا بينه وبينه، ومن تركَ المحرمات التي يقدرُ عليها سرًّا.

والموجب لخشية الله في السر والعلانية أمورٌ.

منها: قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي.

ومنها: النظر في شدة بطشه وانتقامه وقوته وقهره، وذلك يوجب للعبد

ترك التعرض لمخالفتيه، كما قال الحسن: ابن آدم، هل لك طاقة بمحاربة الله، فإن من عصاه فقد حاربه.

وقال بعضهم: عَجِبْتُ من ضعيفٍ يعصي قوياً.

ومنها: قوة المراقبة له، والعلم بأنه شاهدٌ وراقبٌ على قلوب عبادِهِ

وأعمالهم وأنه مع عباده حيث كانوا، كما دل القرآن على ذلك في مواضع، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]. وقوله

تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

[يونس: ٦١]. وقوله: ﴿مَا يَكُوثُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاسِعُهُمْ﴾ [

المجادلة: ٧]. وقوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ

مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾
[النساء: ١٠٨] الآية (١). اهـ باختصار

قال العلامة عطية محمد سالم رحمته الله: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [١٢] [الملك: ١٢].

الْحَشْيَةُ: شِدَّةُ الْخَوْفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ
مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [٤٩] [الأنبياء: ٤٩].

وَيَبَيِّنُ تَعَالَى مَحَلَّ تِلْكَ الْحَشْيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾
[فاطر: ٢٨]؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى وَيُرَاقِبُونَهُ.

وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى حَقِيقَةَ خَشْيَةِ اللَّهِ: ﴿وَلَا يَمُنُّ إِلَّا بِالْغَيْبِ مَنْ لَمَّا يُنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ
وَأَنَّ مِنْهَا لَمَّا يَنْشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَلَئِنْ مِنْهَا لَمَّا يَنْهَبُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾
[البقرة: ٧٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ أُنْزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ

اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فَالَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ هُمْ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَمُرَاقِبَتَهُ
إِيَّاهُمْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ مَهْمَا تَخَسَّفُوا وَتَسَرَّوْا
وَهُمْ دَائِمًا مُنِيبُونَ إِلَى اللَّهِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ

﴿٣٢﴾ مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مَُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢ - ٣٣]، وَهَذِهِ
أَعْلَى دَرَجَاتِ السُّلُوكِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، كَمَا بَيَّنَّ أَتَمَّا مَنْزِلَةُ الْعُلَمَاءِ.

وَقَدْ عَابَ تَعَالَى أَوْلِيَاءَكَ الَّذِينَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ
اللَّهِ، وَيَخْشَوْنَ النَّاسَ، وَلَا يُخْشَوْنَ اللَّهَ: فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ.

وَإِفْرَادُ اللَّهِ بِالْخَشْيَةِ مَنْزِلَةُ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ رِسَالَتَهُ

اللَّهُ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿٣٩﴾ [الأحزاب:

قَالَ الشَّيْخُ رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْهِ: وَالْعَرَبُ تَمْدَحُ مَنْ يَكُونُ فِي خَلَوَاتِهِ كَمَشْهَدِهِ مَعَ النَّاسِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ:

يَتَجَنَّبُ الْهَفَوَاتِ فِي خَلَوَاتِهِ عَفْ السَّرِيرَةِ غَيْبُهُ كَالْمَشْهَدِ وَالْوَاقِعِ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ، وَهِيَ خَشْيَةُ اللَّهِ بِالْغَيْبِ وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ أَسَاسُ عَمَلِ الْمُسْلِمِ كُلِّهِ، وَمُعَامَلَاتِهِ؛ لِأَنَّهُ بِإِيمَانِهِ بِالْغَيْبِ سَيَعْمَلُ كُلَّ خَيْرٍ طَمَعًا فِي ثَوَابِ اللَّهِ، كَمَا فِي مُسْتَهْلِ الْمُصْحَفِ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ يَقُولُونَ بَلْ لَحْزَنَةُ السَّاعَةِ شَدِيدَةٌ﴾ [البقرة: ١ - ٣] الْآيَةَ.

وَبِمَخَافَةِ اللَّهِ بِالْغَيْبِ سَيَتَجَنَّبُ كُلَّ سُوءٍ، فَيَسْلَمُ وَيَتَحَصَّلُ لَهُ مَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ مِنْ ذُنُوبِهِ: ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ عَلَى أَعْمَالِهِ. رَزَقَنَا اللَّهُ خَشْيَتَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ^(١).

(١) «تتمة أضواء البيان» للشيخ عطية محمد سالم (١/ ٣٣٢).

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [١٥٢] وقوله تعالى: [البقرة: ١٥٢] فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبَارَاتٌ.

الأولى: اذْكُرُونِي بِطَاعَتِي أَذْكُرْكُمْ بِرَحْمَتِي.

الثانية: اذْكُرُونِي بِالْإِجَابَةِ وَالْإِحْسَانِ وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: ﴿ادْعُونِي﴾ [غافر: ٦٠].

وَهُوَ قَوْلُ أَبِي مُسْلِمٍ قَالَ: أَمَرَ الْخَلْقَ بِأَنْ يَذْكُرُوهُ رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَرَاجِينَ خَائِفِينَ وَيُخْلِصُوا الذِّكْرَ لَهُ عَنِ الشُّرَكَاءِ، فَإِذَا هُمْ ذَكَرُوهُ بِالْإِخْلَاصِ فِي عِبَادَتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ ذَكَرَهُمْ بِالْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ وَالنِّعْمَةِ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ.

الثالثة: اذْكُرُونِي بِالسَّائِغِ وَالطَّاعَةِ أَذْكُرْكُمْ بِالسَّائِغِ وَالنِّعْمَةِ.

الرابعة: اذْكُرُونِي فِي الدُّنْيَا أَذْكُرْكُمْ فِي الْآخِرَةِ.

الخامسة: اذْكُرُونِي فِي الْخُلُوتِ أَذْكُرْكُمْ فِي الْفَلَوَاتِ.

السَّادِسَةُ: اذْكُرُونِي فِي الرَّخَاءِ اذْكُرْكُمْ فِي الْبَلَاءِ. (١).

خشية الله في الخلوات من أسباب المغفرة وتفريج الكربات

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (١٢)

[الملك: ١٢].

قال ابن كثير رحمه الله: يَقُولُ تَعَالَى مُحِبًّا عَمَّنْ يَخَافُ مَقَامَ رَبِّهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ إِذَا كَانَ غَائِبًا عَنِ النَّاسِ، فَيَنْكَفُ عَنِ الْمَعَاصِي وَيَقُومُ بِالطَّاعَاتِ حَيْثُ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَهُ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ، أَي: تَكْفُرُ عَنْهُ ذُنُوبُهُ وَيُجَازَى بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ.

فمن خشي الله وراقبه في الخلوات والجلوات غفر الله له الذنوب والسيئات ، وفرج عنه الهموم والكربات ،

وَمَا يَرَوَى عَنِ الشَّافِعِيِّ، رحمه الله، أَنَّهُ قَالَ:

صَبْرًا بَهِيمًا مَا أَقْرَبَ الْفَرَجَا **مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي الْأُمُورِ نَجَا**

(١) «تفسير الرازي» (٤ / ١٢٤).

مَنْ صَدَقَ اللَّهُ لَمْ يَنْلَهُ أَدَى وَمَنْ رَجَاهُ يَكُونُ حَيْثُ رَجَا
وقد جاء في الصحيحين (١) عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قَالَ:
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلُكُمْ حَتَّى
أَوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ
عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ
بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ».

قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ (٢)
قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى (٣) بِي طَلَبَ الشَّجَرِ يَوْمًا فَلَمْ أَرْحَ عَلَيْهِمَا حَتَّى
نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ
أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبَسْتُ - وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ - أَنْتَظِرُ اسْتِيقَظَهُمَا
حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصَّبِيَّةُ يَتَضَاغُونَ (٤) عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرَبَا

(١) أخرجه: البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣) (١٠٠).

(٢) لا أغبق: أي ما كنت أقدم عليها أحدًا في شرب نصيبها من اللبن الذي يشربانه. والغبوق شرب آخر النهار مقابل الصبوح.

(٣) نأى: بُعد.

(٤) أي: يتصايحون ويبيكون.

عَبَوْقُهَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَاَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ.

قَالَ الْآخِر: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةٌ عَمٍّ، كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ - وفي رواية: كُنْتُ أَحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجَالُ النِّسَاءَ - فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا ١ فَاْمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَّتْ بِهَا سَنَةً مِنَ السِّنِينَ فَجَاءَنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِئَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا - وفي رواية: فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَقْضِ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ (٢)، فَاَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطِيتُهَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهِكَ فَاْفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّالِثُ: «اللَّهُمَّ اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ وَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ،

(١) كناية عن الجماع.

(٢) الفض: الكسر والفتح، والخاتم كناية عن الفرج وعذرة البكارة، وحقه التزويج المشروع.

فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ: مِنَ الْإِبْلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَاَنْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ».

فمراقبة الله في الخلوات من أسباب تفريج الكربات، بل ومن أسباب مغفرة الذنوب والسيئات وتأمل قول الله العلي الكبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] فقد أفادت هذه الآية الكريمة أن الإيمان والخشية سبب في مغفرة الذنوب، وسبب أيضاً في إثبات الأجور الكبيرة.

فيا أخي المسلم : إذا أغلقت على نفسك الباب وأسدلت على نافذتك الستار، وغابت عنك أعين البشر، فتذكر مَنْ لا تخفى عليه خافية، تذكر من يرى ويسمع دبيب النملة السوداء في الصخرة الصماء في الليلة الظلماء .

يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبُعُوضِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ الْأَلِيلِ
وَيَرَى عُرُوقَ نِيَاطِهَا فِي نَحْرِهَا وَالْمُخَّ فِي تِلْكَ الْعِظَامِ النَّحْلِ
اغْفِرْ لِعَبْدٍ تَابَ مِنْ فَرْطَاتِهِ مَا كَانَ مِنْهُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
نسأل الله أن يتوب علينا، وأن يغفر ذنوبنا، وأن يستر عيوبنا، إنه خير
مأمول، وأكرم مسؤول .

الحياء وصيانة الخلوات

الحياء من الله مانع من معصية الله ففي الصحيحين عن عمران بن
حصين رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: « الحياء لا يأتي إلا بخير » ، وفي
رواية لمسلم قال: « الحياء خير كله » .

- قال الماوردي: واعلم أن الحياء في الإنسان قد يكون من ثلاثة أوجه:

- أحدها: حياة من الله تعالى فيكون بامثال أوامره والكف عن
زواجه.

- والثاني: حياة من الناس فيكون بكف الأذى وترك المجاهرة بالقبيح.

- **والثالث:** حياؤه من نفسه، فيكون بالعفة وصيانة الخلوات.

- فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة، فقد كملت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشر، وصار بالفضل مشهورا، وبالجميل مذكورا. اهـ بتصرف يسير

وقد ثبت في صحيح مسلم أن جبريل عليه السلام سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الإحسان، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الإحسانُ: أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وفيه دليل على أنَّ العبدَ يعبدُ الله تعالى على هذه الصِّفة، وهو استحضارُ قُربه، وأنَّه بينَ يديه كأنَّه يراه، وذلك يُوجبُ الخشيةَ والخوفَ والهيبةَ والتَّعظيمَ.

وهذا هو السببُ الموجبُ لخشية الله في السر، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ الله يراه حيث كان، وأنَّه مُطَّلِعٌ على باطنه وظاهره، وسرِّه وعلايته، واستحضر ذلك في خلواته، أوجب له ذلك تركَ المعاصي في السِّرِّ.

- فمن عبد الله على استحضرار قلبه ومشاهدته بقلبه، أو على استحضرار قرب الله منه وإطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه، ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشغل بما يعنيه فيه، فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله وترك كل ما يُستحيى منه.

- وفي سنن الترمذي (١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ». قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الْإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى (٢)، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨) وحسنه الألباني.

(٢) قوله: « وَمَا وَعَى »، أي: جمعه من القوى والأعضاء من العين والأذن واللسان، فلا يستعمل هذه الأشياء فيما لا يرضى به الله.

قوله: « وَمَا حَوَى »، أي: ما حفظه البطن وجمعه، وما يتصل به من الفرج والرجلين واليدين والقلب من استعمالها في المعاصي.

قوله: «وَالْبَطْنَ»، بكسر الباء: أي: صيرورته تراباً بعد الموت. قاله السندي.

وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ
اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ».

- **قال بعضهم:** استحي من الله على قدر قربك منه، وخف الله على قدر
قدرته عليك.

- **وقال بعضُ العارفين:** إذا تكلمت فاذكر سَمَعَ الله لك، وإذا سكَّ
فاذكر نظره إليك.

فيا أخي المسلم: ألا تستحي من الله أن يراك وأنت تعصيه.

- **ألا تستحي من الله** أن يرى قلبك مشغولاً عنه وأنت واقف بين يديه
في الصلاة.

- **ألا تستحي من الله** أن تقول قولاً وليس في قلبك أي مراقبة لله فيه.

- **ألا تستحي من الله** أن يرى في قلبك بغضاً وكرهيةً لإخوانك
المسلمين.

- **ألا تستحي من الله** أن يرى في قلبك تعظيم المخلوقين أكثر من الخالق.

- ألا تستحي من الله أن تعمل في السر شيئاً تستحي منه في العلانية.

- ألا تستحي من الله بأن يكون ظاهرك خلاف باطنك.

- ألا تستحي من الله عندما يناديك في الثلث الأخير من الليل «هل من سائل فأعطيه، هل من مستغفر فأغفر له ...» وأنت معتكف على الذنوب والمعاصي؟

كان ابنُ السَّماك ينشد:

يا مُدْمِنَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِي والله في الخُلُوةِ ثَانِيكَا
عَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمَهَالُهُ وسِتْرُهُ طَوْلَ مَسَاوِيكَا
نسأل الله أن يسترنا بستره الجميل، وأن يهدينا سواء السبيل .



العفاف في الخلوات

العفاف في الخلوات من أجلّ العبادات ومن أعظم القربات، وهو دليل الإيمان الصادق والقلب الخاشع، وصدق الرقابة للرقيب الكبير السميع البصير اللطيف الخبير، فهذا نبي الله يوسف عليه السلام لما دعت امرأة العزيز إلى نفسها وهو في عنفوان شبابه، وفي قمة نضجه تخرج عليه وتبرز إليه، بأبهى حُلّة، متعطّرة، متبهرجة، مبدية لمفاتها، قد غلّقت الأبواب، ودعّته بصريح العبارة ولم تُكنّ، فقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ صرخ بملئ فمه ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: وَرَاوَدَتْ امْرَأَةً الْعَزِيزِ وَهِيَ الَّتِي كَانَ يُوسُفُ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ أَنْ يُوَاقِعَهَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا أَحَبَّتْهُ حُبًّا شَدِيدًا لِجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ، فَحَمَلَهَا ذَلِكَ عَلَى أَنْ تَجَمَّلَتْ لَهُ، وَعَلَّقَتْ عَلَيْهِ الْأَبْوَابَ، وَدَعَّتْهُ إِلَى نَفْسِهَا، ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلم وأقبل وتعال، فامتنع

مِنْ ذَلِكَ أَشَدَّ الْامْتِنَاعِ، وَ ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أَي: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَأَسْتَجِيرُ بِهِ
مِمَّا دَعَوْتَنِي إِلَيْهِ، وَمَا زَالَ يُوسُفُ يَمْتَنِعُ مِنْ تِلْكَ الْفَاحِشَةِ أَشَدَّ الْامْتِنَاعِ
وَيُفِرُّ فِرَارًا مِنْهَا وَهِيَ تَلَا حَقَّهُ لَتَقْضِيَ حَاجَتَهَا مِنْهُ الَّتِي رَاوَدَتْهُ عَلَيْهَا قَالَ

تَعَالَى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ
قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ هِيَ
رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ
فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ

كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ [يوسف: ٢٥ - ٢٨] وفي هذه الآية الكريمة يُخْبِرُ تَعَالَى
عَنْ حَالِهِمَا حِينَ خَرَجَا يَسْتَبِقَانِ إِلَى الْبَابِ، يُوسُفُ هَارِبٌ، وَالْمُرَاةُ تَطْلُبُهُ
لِيَرْجِعَ إِلَى الْبَيْتِ، فَلَحِقَتْهُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ، فَأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ
فَقَدَّتْهُ قَدًّا فَظِيْعًا، يُقَالُ: إِنَّهُ سَقَطَ عَنْهُ، وَاسْتَمَرَّ يُوسُفُ هَارِبًا ذَاهِبًا،
وَهِيَ فِي إِثْرِهِ، فَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا - وَهُوَ زَوْجُهَا - عِنْدَ الْبَابِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ
خَرَجَتْ مِمَّا هِيَ فِيهِ بِمَكْرِهَا وَكَيْدِهَا، وَقَالَتْ لِرَؤُوسِهَا مُتَنَصِّلَةً وَقَادِفَةً

يُوسُفَ بَدَائِهَا: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ أَي: فَاحِشَةً، ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ أَي: يُجَبَسَ، ﴿أَوْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾ أَي: يُضْرَبَ ضَرْبًا شَدِيدًا مُوجِعًا. فَعِنْدَ ذَلِكَ انْتَصَرَ يُوسُفُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِالْحَقِّ، وَتَبَرَّأَ مِمَّا رَمَتْهُ بِهِ مِنَ الْحَيَانَةِ، وَقَالَ بَارًا صَادِقًا ﴿هِيَ زَوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ وَذَكَرَ أَنَّهَا اتَّبَعَتْهُ تَجَذُّبُهُ إِلَيْهَا حَتَّى قَدَّتْ قَمِيصَهُ، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قُبُلٍ﴾ أَي: مِنْ قُدَامِهِ، ﴿فَصَدَقَتْ﴾ أَي: فِي قَوْلِهَا إِنَّهُ أَرَادَهَا عَلَى نَفْسِهَا، لِأَنَّهُ يَكُونُ لَمَّا دَعَاها وَأَبَتْ عَلَيْهِ دَفَعَتْهُ فِي صَدْرِهِ، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ، فَيَصِحُّ مَا قَالَتْ: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وَذَلِكَ يَكُونُ كَمَا وَقَعَ لَمَّا هَرَبَ مِنْهَا، وَتَطَلَّبَتْهُ أَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنْ وَرَائِهِ لِتَرْدَهُ إِلَيْهَا، فَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ وَرَائِهِ.

وما زالت امرأة العزيز تراود يوسف وتتوعده حينما امتنع ولم يجبها لذلك كما أخبر الله عنها بقوله: ﴿وَلَيْنَ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، تَقُولُ: وَلَئِنْ لَمْ يُطَاوِعْنِي عَلَى مَا أَدْعُوهُ

إِلَيْهِ مِنْ حَاجَتِي إِلَيْهِ ﴿لِلسِّجْنِ﴾ تَقُولُ: لِيُحَبِّسَنِي فِي السِّجْنِ، وَلِيَكُونَا مِنْ أَهْلِ الصَّغَارِ وَالذَّلَّةِ بِالْحُبْسِ وَالسِّجْنِ، وَلَا هَيْئَتَهُ.

فَعِنْدَ ذَلِكَ اسْتَعَاذَ يُوسُفُ، **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، مِنْ شَرِّهِنَّ وَكَيْدِهِنَّ، وَقَالَ: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] أَيُّ: مِنَ الْفَاحِشَةِ، قَالَ يوسُفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ**: يَا رَبِّ، الْحُبْسُ فِي السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ مِنْ

مَعْصِيَتِكَ، وَيَرَاوِدُنِي عَلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ، ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] أَيُّ: إِنْ وَكَّلْتَنِي إِلَى نَفْسِي، فَلَيْسَ لِي مِنْ نَفْسِي قُدْرَةٌ، وَلَا أَمْلِكُ لَهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، أَنْتَ الْمُسْتَعَانُ وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ

كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤] وَذَلِكَ أَنَّ يُوسُفَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ**، عَصَمَهُ اللَّهُ عِصْمَةً عَظِيمَةً، وَحَمَاهُ فَامْتَنَعَ مِنْهَا أَشَدَّ الْامْتِنَاعِ، وَاخْتَارَ السِّجْنَ عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا فِي غَايَةِ مَقَامَاتِ الْكَمَالِ: أَنَّهُ مَعَ شَبَابِهِ وَجَمَالِهِ وَكَمَالِهِ تَدْعُوهُ سَيِّدَتُهُ، وَهِيَ امْرَأَةٌ عَزِيزٌ مِصْرَ، وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي

غَايَةِ الْجَمَالِ وَالْمَالِ، وَالرِّيَاسَةِ وَيَمْتَنِعُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَحْتَارُ السَّجْنَ عَلَى ذَلِكَ، خَوْفًا مِنَ اللَّهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ.

وَهَذَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمُسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَافْتَرَقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَمَنْصِبٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ» (١).

فَإِذَا أُرْخِيتَ عَلَيْكَ السُّتُورُ، وَغُلِّقَتْ الْأَبْوَابُ، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَاكَ، فَاحْذَرِ أَنْ تَقَعَ فِيهَا نَهَاكَ، وَمِنْ أَرْوَعِ الْأَمْثَلَةِ فِي الْعَفَافِ وَمِرَاقِبَةِ اللَّهِ فِي الْخُلُوتِ، مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلَاثَةٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَصَاحِبُ جُرْجِجٍ، وَكَانَ جُرْجِجٌ رَجُلًا عَابِدًا، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فَكَانَ فِيهَا، فَاتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرْجِجُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي فَأَقْبَلَ عَلَى

(١) انظر تفسير ابن كثير والطبري والقرطبي عند الآية الكريمة.

صَلَاتِهِ فَأَنْصَرَفَتْ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ،
فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلَاتِهِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ
وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَأَقْبَلَ عَلَى
صَلَاتِهِ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تُمَتِّهِ حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمُؤْمِسَاتِ. فَتَذَاكَّرَ بَنُو
إِسْرَائِيلَ جُرَيْجًا وَعِبَادَتَهُ، وَكَانَتْ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يَتِمَثَّلُ بِحُسْنِهَا، فَقَالَتْ: إِنْ
شِئْتُمْ لِأَفْنِنَنَّهُ، فَتَعَرَّضْتُ لَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا، فَاتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى
صَوْمَعَتِهِ، فَأَمَكَّتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيْهَا، فَحَمَلَتْ، فَلَمَّا وَلَدَتْ، قَالَتْ:
هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ، فَأَتَوْهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَوْمَعَتَهُ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ،
فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ قَالُوا: زَنَيْتَ بِهِذِهِ الْبَغِيَّةِ فَوَلَدَتْ مِنْكَ. قَالَ: أَئِنَّ
الصَّبِيَّ؟ فَجَاؤُوا بِهِ فَقَالَ: دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ، فَصَلَّى فَلَمَّا انْصَرَفَ أَتَى
الصَّبِيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ، وَقَالَ: يَا غُلَامُ مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: فُلَانُ الرَّاعِي،
فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيْجٍ يُقْبَلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ، وَقَالُوا: نَبْنِي لَكَ صَوْمَعَتَكَ
مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ، فَفَعَلُوا. وَبَيْنَا صَبِيٌّ
يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ، فَقَالَتْ
أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ الشَّيْءَ وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ، فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأَصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ فِي فِيهِ، فَجَعَلَ يَمْصُهَا، قَالَ: «وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا، وَيَقُولُونَ: زَيْنَتٌ سَرَقَتْ، وَهِيَ تَقُولُ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ. فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَ ابْنِي مِثْلَهَا، فَتَرَكَ الرِّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا، فَهَذَا لَكَ تَرَاجَعَا الْحَدِيثَ، فَقَالَتْ: مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلَ ابْنِي مِثْلَهُ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَمَرُّوا بِهِذِهِ الْأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ: زَيْنَتٌ سَرَقَتْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَ ابْنِي مِثْلَهَا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا؟! قَالَ: إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ، وَإِنَّ هَذِهِ يَقُولُونَ: زَيْنَتٌ، وَلَمْ تَزِنْ وَسَرَقَتْ، وَلَمْ تَسْرِقْ، فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا» .

وفي الصحيحين عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: « خَرَجَ ثَلَاثَةٌ يَمْشُونَ فَأَصَابَهُمُ الْمَطَرُ فَدَخَلُوا فِي غَارٍ فِي جَبَلٍ فَانْحَطَّتْ عَلَيْهِمْ صَخْرَةٌ، قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ... الْحَدِيثُ، وَفِيهِ: وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَحَبُّ امْرَأَةٍ مِنْ بَنَاتِ

عَمِّي، كَأَشَدَّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ فَقَالَتْ: لَا تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا، حَتَّى تُعْطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَفْضُ خَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ فَقُمْتُ، وَتَرَكْتُهَا فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَأَفْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمْ الثَّانِينَ ... الحديث». وهذا الحديث فيه الحُص على العَفاف والإِنكفاف عن الفاحشة لا سيما بعد القدرة عليها والتمكن منها.

وقد كتب بعضهم إلى صديق له اتَّهمه بغيَلام بعثه إليه في حاجة:

| | |
|--|---|
| أَبَا بَكْرٍ أَسَأْتَ الظَّنَّ فِيمَنْ | سَاحِبِيَّتُهُ التَّمَنُّعُ وَالْخِلَافُ |
| وَحِفَّتَ عَلَيْهِ فِي الْخَلَوَاتِ مَنِي | وَلَمْ تَكُ بَيْنَنَا حَالٌ تُخَافُ |
| جَفَوْتُ مِنَ الصَّبَا مَا لَيْسَ يُجْفَى | وَعِفْتُ مِنَ الْهَوَى مَا لَا يُعَافُ |
| فَلَوْ أَنِّي هَمَمْتُ بِقُبْحِ فِعْلٍ | لَدَى الْإِغْفَاءِ أَيْقَظَنِي الْعَفَافُ (١) |
| اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى. | |

(١) «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١٥ / ١٥٢).

مناجاة الصالحين ربهم في الخلوات

مَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذِّذُونَ بِمِثْلِ الْخُلُوةِ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَذُرُوءِ الْمُتَلَذِّذِينَ
بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هُوَ نَبِينَا الْكَرِيمُ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ
التَّسْلِيمِ ، سِوَاءِ قَبْلِ النَّبُوءَةِ أَوْ بَعْدَهَا فَقَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ (١) عَنْ
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِيَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا
الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ
حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَحْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي
ذَوَاتِ الْعَدَدِ - قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدَ لِدَلِكِ، ثُمَّ يَرْجِعَ إِلَى
خَدِيجَةَ. فَيَتَزَوَّدَ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ
فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ». قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي
الْجُهْدُ»، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي
الثَّانِيَةَ، حَتَّى بَلَغَ فِي الْجُهْدِ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ.
فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ﴾
بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ

(١) أخرجه البخاري (٣) ومسلم (١٦٠).

بِالْقَلْبِ ④ عَمَّا أَلَانَ مَا لَا يَعْلَمُ ⑤ [العلق: ١ - ٥]. فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ
يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَرَمَلُوهُ حَتَّى
ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»
فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا، وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ،
وَتَصُدِّقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَكْسِبُ الْمُدُومَ وَتَقْرِي الضَّعِيفَ،
وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ إِلَى وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، ابْنِ عَمِّ
خَدِيجَةَ. فَقَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ. فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ
أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى. فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا
هُوَ النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا يَا لَيْتَنِي
أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟»
قَالَ: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي
يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا. ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ وَفَرَ الْوَحْيُ.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١ / ٢٣): **وَالْخَلَاءُ بِالْمُدِّ: الْخُلُوةُ،**
وَالسَّرُّ فِيهِ: أَنَّ الْخُلُوةَ فَرَاغُ الْقَلْبِ لِمَا يَتَوَجَّهُ لَهُ.

وقال الحافظ ابن القيم في «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١ / ٧٦): ثُمَّ حَبَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْخُلُوةَ وَالتَّعَبُّدَ لِرَبِّهِ، وَكَانَ يَحْلُو بِـ « غَارِ حِرَاءٍ » يَتَعَبَّدُ فِيهِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَبُعِضَتْ إِلَيْهِ الْأَوْتَانُ وَدَيْنُ قَوْمِهِ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ.

وقال العلامة حافظ الحكمي في منظومته القيمة «سلم الوصول»:

| | |
|--|--|
| إِلَى الذَّبِيحِ دُونَ شَكٍّ يَتِمُّ | نَبِينًا مُحَمَّدٌ مِنْ هَاشِمٍ |
| وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَهُدًى | أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا مُرْشِدًا |
| هَجَرْتُهُ لَطِيفَةَ الْمُنُورَةِ | مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ الْمُطَهَّرَةِ |
| ثُمَّ دَعَا إِلَى سَبِيلِ رَبِّهِ | بَعْدَ أَرْبَعِينَ بَدَأَ الْوَحْيُ بِهِ |
| رَبًّا تَعَالَى شَأْنُهُ وَوَحَّدُوا | عَشَرَ سِنِينَ أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا |
| يَحْلُو بِذِكْرِ رَبِّهِ عَنِ الْوَرَى | وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي غَارِ حِرَاءِ |

وروى ابن حبان بسنده عن عطاء، قال: دَخَلْتُ أَنَا وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ، عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَتْ لِعُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ: قَدْ أَنْ لَكَ أَنْ تَزُورَنَا، فَقَالَ: أَقُولُ يَا أُمُّهُ كَمَا قَالَ **الْأَوَّلُ**: زُرْ غَيْبًا تَزِدُّ حُبًّا، قَالَ: فَقَالَتْ: دَعُونَا مِنْ رَطَانَتِكُمْ

هَذِهِ (١)، قَالَ ابْنُ عُمَيْرٍ: أَخْبَرِنَا بِأَعْجَبِ شَيْءٍ رَأَيْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَسَكَتَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لَمَّا كَانَ لَيْلَةً مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ: «يَا عَائِشَةُ ذَرِينِي أَتَعْبُدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي» قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ حِجَّتِهِ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى فَلَمْ يَزَلْ يَبْكِي حَتَّى بَلَ الْأَرْضَ، فَجَاءَ بِلَالٌ يُؤَذِّنُهُ بِالصَّلَاةِ، فَلَمَّا رَأَاهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ آيَةً، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ النَّهَارِ لَاَيَتَى لَأَوَّلِي

الْأَلْبَبِ ﴿١١٠﴾﴾ «الآيَةُ كُلُّهَا [آل عمران: ١٩٠] (٢).

(١) الرَّطَانَةُ بِفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، وَالزَّرَاطُنُ: كَلَامٌ لَا يَفْهَمُهُ الْجُمْهُورُ، وَإِنَّمَا هُوَ مُوَاضَعَةٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَوْ جَمَاعَةٍ، وَالْعَرَبُ تُخَصُّ بِهَا غَالِبًا كَلَامَ الْعَجَمِ. النهاية مادة (رطن).

(٢) حسنه الألباني انظر «الصحيحة» (٦٨)، «التعليق الرغيب» (٢/ ٢٢٠) وهو في الصحيح

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَتَوَقَّمُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَنْفَطِرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا!».

فيا أيها العبد المسلم اغتنم الأوقات بالتلذذ بالمناجات ، والإكثار من الطاعات والعبادات ، فإن السعادة كل السعادة في القرب من رب الأرض والسموات ، ألا: فاستبقوا الخيرات ، وشمروا عن ساعد الجد قبل فوات الأوان ، واستعينوا بالله فهو خير من وفق وأعان، وهو سبحانه المستعان وعليه التكلان.

ولقد أحسن من قال:

| | |
|-------------------|-------------------|
| فاغنم العمر وبادر | بالتقى قبل الممات |
| واطلب الغفران ممن | ترتجى منه الهبات |
| ثم ناد في الديات | يا مجيب الدعوات |
| اعف عنا يا رحيماً | وأقننا العثرات |

وقال آخر:

امنع جفونك أن تذوق مناما واذر الدموع على الحدود سجاما

واعلم بأنك ميت ومحاسب
 لله قوم أخلصوا في حبه
 قوم إذا جن الظلام عليهم
 خص البطون من التعفف ضمراً
 يا من على سخط الجليل أقاما
 فرضي بهم واختصهم خداما
 باتوا هنالك سجداً وقياما
 لا يعرفون سوى الحلال طعاما

وقال آخر:

وما أبصرت عيناى أجمل من فتى
 وكان بعض الصالحين يقول في مناجاته: وعزتك وجلالك ما أردت
 بمعصيتك مخالفتك، وما عصيت إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل، ولا
 لعقوبتك متعرض، ولا مستخف بأمرك، ولكن سولت لي نفسي
 وأعانتني عليها شقاوتي، وغرني سترك المرخى علي، عصيتك بجهلي،
 وخالفتك بسفهي، فالآن من ينقذني من عذابك، واعتصم بحبل من ،
 إن قطعت حبلك عني.

فوا أسفاه.. ووا أسفاه من الذنوب، غداً بين يديك إذا قيل للمخفين
 جوزوا مع المخفين، وللمثقلين حطوا، أمع المثقلين أخط أم مع المخفين
 أجوز، وكلما كبر سني كثرت ذنوبي، وكلما طال عمري عظمت

المعاصي، فكم أثوب وكم أعود؟ أما آن لي أن استحي من ربي؟! **وقيل**
في المعنى شعر:

يا عظيم الجلال أنت ملاذي حين أحى وغايتي لمعادي
 بك أرجو النجاة من كل كرب فارحم اليوم عبرتي وسهادي
 لست أدري ماذا تحاول نفسي من فساد يا منقذي من فسادى^(١)
 وكان أبو عبيدة الخواص **رحمته الله** يقول في مناجاته: قد كبر سني، وضعف
 جسمي، ووهن العظم مني فاعتقني . **وأنشد يقول:**

طال اشتياقي وطال في الرجا فكري والليل ماض ولم يقض به وطري
 الله أعلم أني لا أحب بقا في هذه الدار فانقلني إلى حضري
قال أحمد بن حرب رحمته الله: عجت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقه، والنار
 تضرم تحته، كيف ينام بينهما .

وقيل في المعنى شعر:

يا كثير الرقاد والغفلات كثرة النوم تورث الحسرات
 إن في القبر إذ نزلت إليه لرقاداً يطول بعد الممات

(١) «الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح» (ص: ٨٢).

أأمنت الثبات من ملك المو ت أم أنادي مناد بالبينات (١)

المخلصون وحبهم لعمل الخلوات

المخلصون أحرص على إخفاء صالح أعمالهم من غيرهم على كتمان ذنوبهم؛ رجاء أن ينالهم الخير الوارد في الحديث: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»، وقد كان ذلك هدياً بيّناً للسلف الصالح، وسمتاً ظاهراً لهم، ومن ذلك: قول الخريبي: «كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح، لا تعلم به زوجته ولا غيرها»، وقول أيوب السخيتاني: «والله ما صدق عبد إلا سره ألا يُشعر بمكانه»، وقول سلمة بن دينار: «اكتم حسناتك أشد مما تكتم سيئاتك».

وقول بشر الحافي: «أخجل ذكرك، وطيب مطعمك، لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب في الدنيا أن يعرفه الناس».

وقول محمد بن العلاء: «من أحب الله أحب أن لا يعرفه الناس».

وقول الشافعي: «وددت أن الخلق يتعلمون هذا العلم، ولا ينسب إليّ منه شيء» .

وما ورد أن منصور السلمي «صام أربعين سنة وقام ليلها، كان يبكي فنقول له أمه: يا بني قتلت قتيلاً؟! فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسي، فإذا كان الصبح كحل عينيه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه، وخرج إلى الناس» ، وأن داود بن أبي هند «صام أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازاً يحمل غدائه من عندهم، فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشيّاً فيفطر معهم» ، وكان زين العابدين علي بن الحسين ينفق على أهل مئة بيت في المدينة، يأتيهم في الليل بالطعام، ولا يعرفون من الآتي به، حتى مات ففقدوا ذلك؛ فعرفوا أن ذلك منه، ووجدوا في ظهره أثراً من نقل الطعام إلى بيوت الأرامل ، وقال سفيان: «أخبرتني سرية الربيع بن خثيم قالت: كان عمل الربيع كله سراً، إن كان ليحيي الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه» **وقال محمد بن واسع:** «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامراته معه لا تعلم» ، وكان ابن المبارك يضع اللثام على

وجهه عند القتال لئلا يُعرف، قال أحمد: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له».

وهذا الإخفاء إنما هو لما يُشرع إخفاؤه من العمل، وذلك مخصوص بالنوافل دون الفرائض، واستثنى أهل العلم من ذلك من يقتدي الناس به؛ إذ الإبداء في حقه أولى.

قال الطبري رحمه الله: «كان ابن عمر وابن مسعود وجماعة من السلف يتعجلون في مساجدهم، ويتظاهرون بمحاسن أعمالهم؛ ليقتدى بهم، قال: فمن كان إماماً يُستن بعمله، عالماً بما لله عليه، قاهراً لشیطانه؛ استوى ما ظهر من عمله وما خفي؛ لصحة قصده».

واعلم أخي الكريم: أن المخلص سريره أحسن من علانيته: فالمخلص ليس من يظهر التنسك أمام الناس ثم يسيء فيما بينه وبين الله، بل هو قوام على نفسه يحاسبها؛ كأنه أبداً يرى الله، فهو مراقب له سبحانه في سره وعلانيته، لا روغان في استقامته، وهذه من أعظم قرباته، قال ابن

عطاء: «أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات» ، فصنفته كما

ذكر الله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤] .

قال الحسن: «هذا ليلهم إذا خلوا بينهم وبين ربهم تبارك وتعالى» ، فهو أبعد ما يكون عن خلال أولئك الذين ضعف إخلاصهم، وقلّت مراقبتهم، ممن حكى النبي ﷺ لنا حالهم، فقال: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تَهَامَةٌ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا» قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا» . فإتيان المعاصي وانتهاك الحرمات في السر عمل مشين، وليس من أخلاق المخلصين.

ولذا قال الربيع بن خثيم: «السرائر السرائر.. اللاتي تخفين من الناس وهنَّ لله تعالى بَوَادٍ، التمسوا دواءهن ثم يقول: وما دواؤهن إلا أن تتوب ثم لا تعود» .

وقال حميد الطويل: «لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت» .

وقال ابن الأعرابي: «أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله، وبارز بالقبيح مَنْ هو أقرب إليه من جبل الوريد» .

وقال الحسن بن الربيع عن جهاد الإمام الجليل عبد الله بن المبارك :
خرج فارس من المسلمين ملثم فقتل فارساً من العدو ، كان فعل بالمسلمين ، فكبر له المسلمون، فدخل في غمار الناس ولم يعرفه أحد، فتتبعته حتى سأله بالله أن يرفع لثامه، فعرفته فقلت: أخفيت نفسك مع هذا الفتح العظيم الذي يسره الله على يدك؟ فقال الذي فعلت له لا يخفى عليه .

ولعل من أروع ما دوّنه التاريخ في ذلك قصة صاحب النقب.

قال ابن قتيبة: في كتابه «عيون الأخبار»: حَاصِرَ مَسْلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ حِصْنًا، وَأَصَابَهُمْ فِيهِ جَهْدٌ عَظِيمٌ، فَدَدَبَ النَّاسَ إِلَى نَقْبٍ مِنْهُ، - أي

ثقب في الحائط - فَمَا دَخَلَهُ أَحَدٌ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْجُنْدِ فَدَخَلَهُ، فَفَتَحَ
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَنَادَى مُنَادِي مَسْلَمَةَ: أَيْنَ صَاحِبُ النَّقْبِ؟ فَمَا جَاءَ أَحَدٌ
 حَتَّى نَادَى مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا، فَجَاءَ فِي الرَّابِعَةِ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنَا أَنِّي
 الْأَمِيرُ صَاحِبُ النَّقْبِ، أَخَذُ عُهُودًا ثَلَاثًا: لَا تُسَوِّدُوا اسْمِي فِي
 صَحِيفَةٍ، - أَي لَا تَكْتُبُوا فِي صَحِيفَةٍ إِلَى الْخَلِيفَةِ - وَلَا تَأْمُرُوا لِي بِشَيْءٍ،
 وَلَا تَشْغَلُونِي عَنْ أَمْرِي. قَالَ: فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ: قَدْ فَعَلْنَا ذَلِكَ بِكَ. قَالَ:
 فَعَابَ بَعْدَ ذَلِكَ؛ فَلَمْ يُر. قَالَ: فَكَانَ مَسْلَمَةُ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ فِي دُبُرِ
 صَلَاتِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مَعَ صَاحِبِ النَّقْبِ، (١).

وما أجمل قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله وهو يشير إلى عاقبة الإخلاص
 لله تعالى : فإنما قدر عون الله للعباد على قدر النيات، فمن تمت نيته تم
 عون الله له، ومن قصرت نيته قصر عون الله له. نسأل الله تعالى أن يجعل
 أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول
 فيتبعون أحسنه ، إنه هو البر الرحيم .

أهل العلم والمراقبة

قَالَ الإمام ابن الجوزي رحمه الله: فِي «صَيْدِ الْخَاطِرِ»: يَا قَوْمَ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالنِّيَّاتِ ، وَقَدْ فَهِمْتُمْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر: ٣] . وَقَدْ سَمِعْتُمْ عَنِ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُعَلِّمُونَ وَلَا يَقُولُونَ حَتَّى تَتَقَدَّمَ النِّيَّةُ وَتَصِحَّ ، أَيْذَهَبَ زَمَانُكُمْ يَا فَقَهَاءُ فِي الْجَدَلِ وَالصِّيَاحِ ، وَتَرْتَفِعُ أَصْوَاتُكُمْ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْعَوَامِّ تَقْصِدُونَ الْمُغَالِبَةَ ، ثُمَّ يُقَدِّمُ أَحَدُكُمْ عَلَى الْفِتْوَى وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَتَدَاَفَعُونَهَا ، وَيَا مَعَشَرَ الْمُتَزَهِّدِينَ إِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَمَا يَخْفَى ، أَتُظْهِرُونَ الْفَقْرَ فِي لِبَاسِكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْتَهْوُونَ شَهَوَاتٍ ، وَتُظْهِرُونَ التَّخَشُّعَ وَالْبُكَاءَ فِي الْجُلُوتِ دُونَ الْخُلُوتِ ، كَانَ ابْنُ سِيرِينَ يَضْحَكُ وَيُقَهِّقُهُ ، فَإِذَا خَلَا بَكَى فَأَكْثَرَ وَقَالَ سُفْيَانُ لِصَاحِبِهِ : مَا أَوْفَحَكَ تُصَلِّيَ وَالنَّاسُ يَرَوْنَكَ .

أَفْئِدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضِغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ^(١)

(١) هذا البيت من شعر المتنبي ، وبعده:

وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحِمَامِ مَاثِلَةً
أَوْزَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِبِ

أَهْ لِلْمَرَاتِي مِنْ يَوْمٍ يُحْصَلُ مَا فِي الصُّدُورِ ، وَهِيَ النِّيَّاتُ وَالْعَقَائِدُ ،
فَاجْزَأْ عَلَيْهَآ لَا عَلَى الظَّوَاهِرِ ، فَأَفِيقُوا مِنْ سَكْرَتِكُمْ ، وَتُوبُوا مِنْ
زَلَلِكُمْ وَاسْتَقِيمُوا عَلَى الْجَادَّةِ . ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي

جَنَّبَ اللَّهُ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ [الزمر: ٥٦]. وما أحوج طلاب
العلم إلى الإخلاص لله و مراقبة الله عز وجل وقراءة الكتب المعينة لهم
على التحلي بهذه الخصال العظيمة لا سيما في هذا الوقت الذي يعجب
فيه الطالب بنفسه إذا أتقن مسألة غريبة أو مسألة غفل عنها بعض أهل
العلم فأخذ يذكرها في كل مجلس معجباً بنفسه وإشارة الغوغاء من
الصغار إليه بالبنان فتكون النتيجة تتبع هذه المسائل وإشغال عامة
الطلبة بها ، ومع ذلك غفل عن قلبه وحقيقة نفسه وخاصة في أمور
الخلوات ومراقبة رب الأرض والسموات ، فبالله عليك ما الفائدة إذا

الطباء: معروفة من شاء البر، ومضغ الكلام: ترديده دون إبانة، والصقل: الجلاء والتنصيع،
والعرقوب: العضلة التي تصل بين الساق وآخر القدم، والجمع عراقيب ، فيقول على نحو ما
قدمه من تفضيل نساء الأعراب: أفدي بنفسي طباء فلاة، معشوقات الدل، متكاملات الحسن،
لا يمزغن الكلام لفصاحتهم فيه، ولا يتكلفن صبغ الحواجيب، لاستغنائهن عنه. انظر «شرح
معاني شعر المتنبي لابن الإفليلي - السفر الثاني (١ / ٧٧)».

قيل فلان عالم الوقت أو حافظ العصر أو أستاذ العِلل، والقلب خال من الخشية والعين متحجرة من القسوة، ومع هذا نجد بعض طلاب العلم ممن أوتي حظاً قليلاً وفقهاً يسيراً في التعامل مع النفس، يستنكف ويستكبر على كتب الرقاق ومواعظ السباق إلى جنات الخلد والدهاق (١) ويرى هذه الكتب لطائفة معينة من المسلمين ليس عندهم العلم الكثير، بل ربما لا يرى الدروس التي فيها الرقاق مهمة بالنسبة إلى من وصل هذا العلم ناسياً أو متناسياً حال الرسول ﷺ مع أصحابه في هذا الشأن، وكتب ودواوين السنة زاخرة بذلك، وتتابع أئمة العلوم من هذه الأمة أجمع على التأليف فيها كالبخاري وأحمد وأبي داود ووكيع وهناد وابن المبارك والبيهقي وابن تيمية وابن القيم والسعدي وابن باز رحم الله الجميع وقد كانوا على جانب كبير من علم الجرح والتعديل وعلل الأحاديث، بينما البعض في هذا الوقت ليس حظهم من العلم إلا قلة العمل وحب الشهرة فنسأل الله علماً نافعاً وعملاً صالحاً وإني أنصح

(١) قال في «المعجم الوسيط»: الدهاق يقال كأس دهاق مترعة ممتلئة ومتتابعة على شاربها وصافية، وماء دهاق كثير .

نفسى وإخوانى بالرجوع إلى الرسائل التى ألفت فى اقتضاء العلم بالعمل
ومن أهمها كتاب الخطيب البغدادي رحمته الله بتحقيق الشيخ الألبانى رحمته الله
وغيرها كثير ليس هذا مجال ذكرها.

وما أحسن ما ذكره الذهبى رحمته الله فى «السير» فى ترجمة عبد الرحمن بن
شريح المعافري قال هانىء بن المتوكل: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْعَافِرِيِّ،
قَالَ: كُنَّا عِنْدَ أَبِي شُرَيْحٍ رحمته الله فَكَثُرَتِ الْمَسَائِلُ، فَقَالَ: قَدْ دَرَنْتَ قُلُوبَكُمْ،
فَقُومُوا إِلَى خَالِدِ بْنِ حُمَيْدٍ الْمَهْرِيِّ، اسْتَفْلُوا قُلُوبَكُمْ، وَتَعَلَّمُوا هَذِهِ
الرَّغَائِبَ وَالرَّقَائِقَ، فَإِنَّهَا تُجَدِّدُ الْعِبَادَةَ، وَتُورِثُ الزَّهَادَةَ، وَتَجْرِي الصَّدَاقَةَ،
وَأَقْلُوا الْمَسَائِلَ، فَإِنَّهَا فِي غَيْرِ مَا نَزَلَ تُقَسِّي الْقَلْبَ، وَتُورِثُ الْعِدَاوَةَ.

قُلْتُ: (الذهبى) صدق -والله- فما الظنُّ إذا كانت مسائل الأصول،
ولوازم الكلام فى معارضة النصِّ؟ فكيف إذا كانت من تشكيكات
المنطق، وقواعد الحكمة، ودين الأوائل؟!

فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ مِنْ حَقَائِقِ (الْإِتِّحَادِيَّةِ) (١) ، وَزَنْدَقَةِ (السَّبْعِيَّةِ) (٢) ،
وَمَرَقِ (الْبَاطِنِيَّةِ) (٣) !؟

فَوَاغْرِبَتَاهُ، وَيَا قِلَّةَ نَاصِرَاهُ، آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

(١) وهم الذين يقولون بوحدة الوجود، وهو مذهب باطل، يعري القائل به من الإسلام، لأنه يعد الله والوجود شيئا واحدا وأن الله موجود في كل موجود، وأن ما نحسه ونشاهده هو الله في صورة العالم كما قال:

نحن المظاهر والمعبود ظاهرنا ومظهر الكون عين الكون فاعتبروا
ولست أعبدُه إلا بصورته فهو الإله الذي في طيه البشر

(٢) السبعينية: فرقة نسبت إلى رئيسها: عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الاشبيلي المرسى، المتوفى سنة (٦٦٩ هـ) ، وهو من القائلين بوحدة الوجود.
قال ابن دقيق العيد: جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر، وهو يسرد كلاما تعقل مفرداته ولا تعقل مركباته.

(٣) الباطنية: دعوة ظهرت أولا في زمان المأمون، وانتشرت في زمان المعتصم.
وذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يجسروا على إظهاره خوفا من سيوف المسلمين، ومنهم: ميمون بن ديصان المعروف بالقداح، ومحمد بن الحسين الملقب بدنجان، ثم حمدان قرمط وأبو سعيد الجنابي.

فإذا كانت هذه غربة الذهبي في وقته فكيف بوقتنا؟ فالله المستعان وعليه التكلان (١).

ومما يستحسن إيراده هاهنا ما ذكره الحافظ ابن رجب الحنبلي كما في «مجموع رسائله» فقال **رحمته الله**: فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خشع فخشعت الجوارح كلها تبعاً لخشوعه.

وفي «صحيح مسلم» (٢) عن النبي **ﷺ** أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ». وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع.

وروي عنه **عليه السلام**: «أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا» (١).

(١) «سير أعلام النبلاء» ط الرسالة (٧ / ١٨٢)، أُرشيف ملتقى أهل الحديث (١ / ٥٩٧٤).

(٢) برقم (٢٧٢٢) من حديث زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ، **رضي الله عنه**.

وفي حديث آخر قال: «سَلُّوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» (٢).

وأما العلم الذي على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم.

كما قال النبي ﷺ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» (٣).

فإذا ذهب من الناس العلم الباطن بقي الظاهر على الألسنة حجة، ثم يذهب هذا العلم الذي هو حجة بذهاب حملته، ولا يبقى من الدين إلا اسمه فيبقى القرآن في المصاحف ثم يسري به في آخر الزمان فلا يبقى منه في المصاحف ولا في القلوب شيء.

(١) أخرجه أحمد (٢٦٥٢١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٢)، وابن ماجه (٩٢٥) من حديث أم سلمة رضي الله عنها. وله طرق وشواهد أخرى، انظر: «الصحيحة» (١/ ١٥)، «المشكاة» (٢٤٩٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٨٤٣) وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه.

ومن هنا قَسَمَ من قَسَمَ من العُلَمَاءِ العلم إلى باطن وظاهر، فالباطن: ما باشر القلوب فأثمر لها الخشية والخشوع، والتعظيم والإجلال، والمحبة والأنس والشوق.

والظاهر: ما كان على اللسان، فبه تقوم حجة الله على عباده.

وكتب وهب بن منبه إلى مكحول: «إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ أَصَبْتَ بِمَا ظَهَرَ لَكَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ شَرَفًا فَاطْلُبْ بِمَا بَطَنَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ مَحَبَّةً وَزُلْفَى».

وفي رواية أخرى أَنَّهُ كَتَبَ إِلَيْهِ: «إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ بِظَاهِرِ عِلْمِكَ عِنْدَ النَّاسِ مَنْزِلَةً وَشَرَفًا، فَاطْلُبْ بِبَاطِنِ عِلْمِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً وَزُلْفَى، وَاعْلَمْ أَنَّ إِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ تَمْنَعُ الْأُخْرَى».

فأشار وهب بعلم الظاهر إلى علم الفتاوى والأحكام، والحلال والحرام، والقصص والوعظ وهو ما يظهر على اللسان.

وهذا العلم يوجب لصاحبه محبة الناس له، وتقدمه عندهم، فحذره من الوقوف عند ذلك، والركون إليه والالتفات إلى تعظيم الناس ومحبتهم؛

فإن من وقف مع ذلك فقد انقطع عن الله وانحجب بنظره إلى الخلق عن الحق.

وأشار بعلم الباطن إلى العلم الذي يباشر القلوب، فيحدث لها الخشية والإجلال والتعظيم، وأمره أن يطلب بهذا المحبة من الله والقرب منه والزلفى لديه.

وكان كثير من السلف كسفيان الثوري وغيره يقسمون العلماء ثلاثة أقسام:

✽ **عَالِمٌ بِاللَّهِ وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ.**

ويشيرون بذلك إلى من جمع بين هذين العلمين المشار إليهما الظاهر والباطن، وهؤلاء أشرف العلماء، وهم الممدوحون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٢٨﴾ [فاطر: ٢٨].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا

﴿١٠٧﴾ [الإسراء: ١٠٧] إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقال كثير من السلف: لَيْسَ الْعِلْمُ كَثْرَةُ الرِّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْحَشْيَةُ.

وقال بعضهم: كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا، وَكَفَى بِالْاِعْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا.

❖ ويقولون أيضًا: عَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ.

وهم أصحاب العلم الباطن الذي يخشون الله، وليس لهم اتساع في العلم الظاهر.

❖ ويقولون: عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ.

وهم أصحاب العلم الظاهر الذين لا نفاذ لهم في العالم الباطن، وليس لهم خشية ولا خشوع، وهؤلاء مذمومون عند السلف.

وكان بعضهم يقول: هَذَا هُوَ الْعَالِمُ الْفَاجِرُ.

وهؤلاء الذين وقفوا مع ظاهر العلم ولم يصل العلم النافع إلى قلوبهم ولا شموا له رائحة، غلبت عليهم الغفلة والقسوة، والإعراض عن الآخرة والتنافس في الدنيا، ومحبة العلو فيها والتقدم بين أهلها.

وقد منعوا إحسان الظن بمن وصل العلم النافع إلى قلبه، فلا يحبونهم ولا يجالسونهم، وربما ذمهم وقالوا: ليسوا بعلماء، وهذا من خداع الشيطان وغروره، ليحرمهم الوصول إلى العلم النافع الذي مدحه الله ورسوله، وسلف الأمة وأئمتها.

ولهذا كان علماء الدنيا يبغضون علماء الآخرة، ويسعون في أذاهم جهدهم، كما سعوا في أذى سعيد بن المسيب والحسن وسفيان ومالك وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين، وذلك لأن علماء الآخرة خلفاء الرسل، وعلماء السوء فيهم شبه من اليهود، وهم أعداء الرسل وقتلة الأنبياء ومن يأمر بالقسط من الناس، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للمؤمنين، ولشدة محبتهم للدنيا لا يعظمون علماً ولا ديناً، وإنما يعظمون المال والجاه والتقدم عند الملوك.

كما قال بعض الوزراء للحجاج بن أرطاة: إِنَّ لَكَ دِينًا وَإِنَّ لَكَ فِقْهًا.

فقال الحجاج: أَفَلَا تَقُولُ إِنَّ لَكَ شَرَفًا وَإِنَّ لَكَ قَدْرًا.

وكثير ممن يدعى الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر، الذي هو الشرائع والأحكام، والحلال والحرام ويطعن في أهله ويقولون: هم محبوبون وأصحاب قشور، وهذا يوجب القدح في الشريعة، والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها.

وربما انحل بعضهم عن التكاليف، وادعى أنها للعامة، وأما من وصل فلا حاجة له إليها، وأنها حجاب له، وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين: وصلوا ولكن إلى سَقَرٍ.

وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام.

ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لَا يُتَلَقَّى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة، وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات،

فأساءوا الظن بالشريعة الكاملة، حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب، وأوجب لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية، والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر، فضلوا وأضلوا.

فظهر بهذا أن أكمل العلماء وأفضلهم: العلماء بالله وبأمره الذين جمعوا بين العلمين وتلقوهما معاً من الوحيين -أعني: الكتاب والسنة- وعرضوا كلام الناس في العلمين معاً على ما جاء في الكتاب والسنة، فما وافق قبلوه، وما خالف ردوه.

وهؤلاء خلاصة الخلق، وهم أفضل الناس بعد الرسل، وهم خلفاء الرسل حقاً، وهؤلاء كثير في الصحابة، كالخلفاء الأربعة، ومعاذ، وأبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود وابن عمر، وابن عباس وغيرهم.

وكذلك فيمن بعدهم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والنخعي، ويحيى بن أبي كثير.

وفيمن بعدهم كالثوري، والأوزاعي، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين.

وقد ساهم علي بن أبي طالب -**رضي الله عنه**-: العلماء الربانيين، يشير إلى أنهم الربانيون الممدوحون في غير موضع من كتاب الله، فقال: «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَّجٌ رِعَاغٌ ...» (١).

نداء لمن يظهر الخير والصلاح في الظاهر دون الباطن

ومن هنا أطلق النداء، لمن أراد الركوب في قافلة السعداء، ويسلك طريق الأتقياء، وينهج نهج الأخفاء الأزكياء، فأقول: يا من خلقك الله لعبادته وأمرك بطاعته، أين أنت من العبادة، وأين أنت من مراقبة الله، يا من يظهر الخير والصلاح في الظاهر دون الباطن، ويأمر الناس بالخير وهو بمعزل عنه، وينهاهم عن الشر وهو قريب منه، أما سمعت

قول الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ

الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، أما قرأت قوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا

(١) «مجموع رسائل ابن رجب» (٢/ ٢٨٩-٢٩٤).

الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ [الصف: ٢ - ٣]، وتأمل عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله، فقد جاء في الصحيحين (١) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ (٢) بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ، مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، كُنْتُ أَمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ».

وروى مسلم (٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَفَهُ نِعْمَتُهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى

(١) أخرجه: البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) (٥١).

(٢) قوله: «تَنْدَلِقُ» هُوَ بِالْدَالِ الْمَهْمَلَةِ، وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ. وَ «الْأَقْتَابُ»: الْأَمْعَاءُ، وَاحِدُهَا قَتَبٌ.

(٣) أخرجه: مسلم (١٩٠٥) (١٥٢).

اسْتَشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ (١) ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيقَالَ: عَالِمٌ! وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيقَالَ: هُوَ قَارِئٌ؛ فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكَتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيقَالَ: جَوَادٌ! فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ».

فانظر إلى خطر العلم بغير عمل، فكل علم لا يفيد عملاً ليس في القرآن ولا في السنة ما يدل البتة على استحسانه، فما قيمة علم لا يورثنا الخشية من الله جلّ وعلا؟، ما قيمة علم لا يورثنا الطاعة؟ ما قيمة علم لا

(١) «جَرِيءٌ» بفتح الجيم وكسر الراء والمد: أي شجاعٌ حاذقٌ.

يدفعنا دفعاً إلى القرب من الله تبارك وتعالى؟ قال الله جلّ وعلا : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .

فالقضية أخي الكريم ليست في تحصيل العلم وجمعه فحسب، وإنما في أن نحول هذا العلم الشرعي في حياتنا إلى واقع، وإلى منهج عملي .

قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ، وَإِلَّا ارْتَحَلَ (١)» .

وأنشدوا :

| | |
|---|--|
| يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلَّمُ غَيْرُهُ | هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ |
| تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّرِي | كَيْمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ |
| وَنَرَاكَ تُصْلِحُ بِالرَّشَادِ عُقُولَنَا | أَبْدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمٌ |
| فَأَبْدًا بِنَفْسِكَ فَاثِمًا عَنْ غِيَّهَا | فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ |
| فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُهْتَدَى | بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ |
| لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ | عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ |

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص: ٣٥).

قال ابن رجب رحمه الله في «لطائف المعارف» : قال بعضهم: لا تنفع الموعظة إلا إذا خرجت من القلب فإنها تصل إلى القلب فأما إذا خرجت من اللسان فإنها تدخل من الأذن ثم تخرج من الأخرى. قال بعض السلف: إن العالم إذا لم يرد بموعظة وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا، كان يحيى بن معاذ ينشد في مجالسه:

| | |
|--|--------------------------|
| مواظ الواعظ لن تقبلا | حتى يعيها قلبه أولا |
| يا قوم من أظلم من واعظ | قد خالف ما قاله في الملا |
| أظهر بين الناس إحسانه | وبارز الرحمن لما خلا |
| العالم الذي لا يعمل بعلمه كمثل المصباح يضيء للناس ويحرق نفسه | |

قال أبو العتاهية:

| | |
|---------------------------|------------------------|
| وبّخت غيرك بالعمى فأفدته | بصرا وأنت محسن لعباك |
| وفتيلة المصباح تحرق نفسها | وتضيء للأعشى وأنت كذاك |

المواعظ درياق الذنوب: فلا ينبغي أن يسقي الدرايق (١) إلا طيب حاذق معافى فأما لديغ الهوى فهو إلى شرب الدرايق أحوج من أن يسقيه لغيره.

في بعض الكتب السالفة: إذا أردت أن تعظ الناس فعظ نفسك فإن اتعظت وإلا فاستحي مني:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي الناس وهو سقيم
لما جلس عبد الواحد بن زيد للوعظ أته امرأة من الصالحات فأنشدته:

| | |
|-----------------------|-----------------------|
| يا واعظا قام لاحتساب | يزجر قوما عن الذنوب |
| تنهى وأنت المريب حقا | هذا من المنكر العجيب |
| لو كنت أصلحت قبل هذا | عيبك أو تبت من قريب |
| كان لما قلت يا حبيبي | موقع صدق من القلوب |
| تنهى عن الغى والتمادي | وأنت في النهي كالمريب |

(١) التَّزْيَاقُ: مَا يُسْتَعْمَلُ لِدَفْعِ السَّمِّ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْمَعَاجِينِ، وَهُوَ مُعَرَّبٌ. وَيُقَالُ بِالذَّلِّ أَيْضًا.

النهاية، مادة (ترق).

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير ، قال رجل لابن عباس: أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر فقال له ابن عباس: إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل وإلا فابدأ بنفسك ثم

تلا: قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]

وقوله تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ٢ ﴿ كَبُرَ

مَقَامًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ٣ ﴿ [الصف: ٢، ٣] وقوله تعالى

حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَضَكُمْ عَنْهُ

﴿ [هود: ٨٨]

قال النخعي رحمته الله: كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث قيل

لمطرف: ألا تعظ أصحابك؟ قال: أكره أن أقول ما لا أفعل، تقدم بعض

التابعين ليصلي بالناس إماما فالتفت إلى المأمومين يعدل الصفوف وقال:

استووا فغشي عليه فسئل عن سبب ذلك فقال: لما قلت لهم استقيموا

فكرت في نفسي فقلت لها فأنت هل استقيمت مع الله طرفة عين؟.

مَا كُلُّ مَنْ وَصَفَ الدَّوَاءَ يَسْتَعْمِلُهُ وَلَا كُلُّ مَنْ وَصَفَ التَّقَى ذُو تَقَى

وَصَفْتُ الثَّقَى حَتَّى كَأَنِّي ذُو ثَقَى وَرِيحُ الْخَطَايَا مِنْ ثِيَابِي تَعْبَثُ
ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
والوعظ والتذكير ولو لم يعظ إلا معصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد
رسول الله ﷺ أحد لأنه لا عصمة لأحد بعده:

لئن لم يعظ العاصين من هو مذهب فمن يعظ العاصين بعد محمد
أهـ.

إن من الأمور العجيبة، والأشياء الغريبة، أن يقف الرجل واعظاً ناصحاً
آمراً عباد الله بتقوى الله، وهو بعيد عن تقوى الله ومراقبة الرقيب جل
جلاله، ولقد أحسن من قال:

عجبت لشيخ يأمر الناس بالتقى وما راقب الرحمن يوماً وما اتقى
كان مالك بن دينار رحمه الله تعالى يقول: إن العالم إذا لم يعمل بعلمه
زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا، أي كما يزل الماء
عن الحجر الأملس، كم من مذكر بالله وهو ناسٍ له، وكم من مخوف من

الله وهو جَرِيءٌ على الله، وكم من تالٍ لكتاب الله وهو منسلخ عن آيات الله، وكم من مقرب إلى الله وهو بعيد عن الله، اللهم ارزقنا الصدق والإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال.

قيل للزهري: ما الزهد؟ قال أما إنه ليس تشعيث اللِّمَّة (١) ولا قشف الهيئة (٢)، ولكنه صرف النفس عن الشهوة. وقال ابن السَّماك: الزاهد: هو الذي إذا أصاب الدنيا لم يفرح، وإذا أصابته لم يحزن، يضحك في الملا، ويبكي في الخلا، أي عند ذكر الله في الخلوة.

(١) اللِّمَّة مِنْ شَعْرِ الرَّأْسِ: دُونَ الْجُمَّةِ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ، لِأَنَّهَا أَلَّتْ بِالْمُنْكِيِّينَ، فَإِذَا زَادَتْ فَهِيَ الْجُمَّةُ قَالَهُ فِي النِّهَايَةِ .

وفي نظم مثلث قطرب :

وَمَا بَقِيَ لِي لِمَّةٌ وَلَا بَقِيَ مِنْ نَصَبٍ وَكَانَ مَا بِي لِمَةً، مُذْ شَابَ شَعْرُ اللَّمَّةِ
وَالضَّمُّ جَمْعُ النَّاسِ مَا بَيْنَ شَيْخٍ بِالْفَتْحِ خَوْفُ الْبَأْسِ، وَالْكَسْرِ شَعْرُ الرَّأْسِ

(٢) قال ابن الأثير في «النَّهْيَةِ» مادة (قشف): الْقَشَفُ: يُبْسُ الْعَيْشُ. وَقَدْ قَشِفَ يَقْشِفُ. وَرَجُلٌ مُتَقَشِّفٌ: أَي تَارِكٌ لِلنِّظَافَةِ وَالرَّفْقَةِ.

فإن الله في مراقبة الله في الخلوات والحذر الحذر من انتهاك الحرمات في الخلوات والجلوات والإعراض عن ذكر الله ، فمن أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوس الشيطان وهواجس النفس بما يوجب له وحشة الضمير ، وانسداد أبواب الراحة والبسط .

ويقال: مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فِي الْخُلُوةِ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ فِي الظَّاهِرِ مِنَ الْقَرِينِ السَّوِّءِ مَا تَوَجَّبُ رُؤْيَاهُ لَهُ قَبْضُ الْقُلُوبِ وَاسْتِيلَاءُ الْوَحْشَةِ .

وليعلم الخطيب أنه مهما بلغت فصاحته، وتجلى بيانه، ومهما بلغ من قوة الإلقاء، ونصاعة الأسلوب فإنه لن يستطيع أن يقنع أحداً بفكره، أو أن يستميل القلوب لدعوته ما لم يكن مخلصاً في دعوته، نقياً في سيرته.

بل إنه مع ذلك لا يستطيع أن يسلم من غمز الناس به في سلوكه، فليوطن نفسه على ذلك، وكم رأينا وسمعنا من خطيب مفوّه، لكن الناس يجلسون في خطبته جلوس المحكومين ظلماً وكأنهم يستمعون إلى قاض ظالم يتلو عليهم قرار الحكم، وكم رأينا كذلك من خطباء يتمنى الحضور لو أن خطبة أحدهم تمتد ساعات، وهذا شيء مشاهد معلوم،

فليس الأسلوب وحده أو البلاغة والفصاحة وحدها هي التي تجذب قلوب الناس وتحبيهم في الخطيب أو الداعية.

ولن يستطيع الخطيب أن يقف صاعدًا بالحق، واثقًا مما يقول، وهو يعلم أن العيون تغمزه، والقلوب تمقتة، وأنه ملوث السيرة، غير نقي الذيل.

فكأن الناس وهم ينغضون إليه رؤوسهم، ويرمون إليه بأبصارهم يقولون بلسان حالهم:

| | |
|---|--|
| يا أيها الرجلُ المعلمُ غيرَه | هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ |
| تصفُ الدَّوَاءَ لَذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى | كَيْمَا يَصَحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمٌ |
| وَنَرَاكَ تُصْلِحُ بِالرَّشَادِ عَقُولَنَا | أَبَدًا وَأَنْتَ مِنَ الرَّشَادِ عَقِيمٌ |
| لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ | عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ |

واعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل إلى القلب، فكل خطيب وواعظ لا يكون عليه سيما الصلاح قل أن ينفع الله به.

| | |
|--|---|
| يَا وَاعِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْتَ مُتَّهِمًا | إِذْ عِبْتَ مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ تَأْتِيهَا |
| كَالْمُلْبَسِ الثَّوْبَ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ | لِلنَّاسِ بَادِيَةٌ مَا إِنْ يُوَارِيهَا |
| وَأَعْظَمُ الْإِثْمِ بَعْدَ الشَّرِكِ نَعْلَمُهُ | فِي كُلِّ نَفْسٍ عَمَّا هَا عَنْ مَسَاوِيهَا |

وَشُغْلُهَا بِعُيُوبِ النَّاسِ تُبْصِرُهَا
 مِنْهُمْ وَلَا تُبْصِرُ الْعَيْبَ الَّذِي فِيهَا ١
 قال الشافعي رحمه الله :

يا واعظ الناس عمّا أنت فاعله
 احفظ لشيبك من عيب يدنّسه
 كحامل لثياب الناس يغسلها
 تبغى النجاة ولم تسلك طريقتها
 فاحذر أيها المسلم وأيها الداعية إلى الله أن تكون كالفتيلة تُضيء غيرها
 وتحرق نفسها فغيرها ينتفع بها وهي لا تنتفع بنفسها بل تضمحل
 وتنتهي وتحرق نفسها، وقد روى الخطيب البغدادي (٢) عَنْ جُنْدُبِ بْنِ
 عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلّى الله عليه وآله : «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ
 الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السَّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ (٣)» .

(١) «دليل الواعظ إلى أدلة المواظ» (ص: ٦٤).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص: ٤٩).

(٣) وصححه العلامة الألباني في تحقيق «اقتضاء العلم العمل» للبغدادي (٤٩).

وروى أيضاً ، عَنْ أَبِي بَرزَةَ رضي الله عنه ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَثَلُ
الَّذِي يَعْلَمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ مَثَلُ الْفَتِيلَةِ (١) تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْرِقُ
نَفْسَهَا (٢)» .

فتأمل هذا التشبيه ما أروعهُ وما أبلغهُ، ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ . فقد
شبه الداعية ومعلم الناس الخير الذي لم يستفد من علمه ولم يستتر بنوره
بالسراج تارة وبالفتيلة تارة أخرى .

فاحذر كل الحذر أن تكون من هذا الصنف المحروم واعلم أنك مسئول
عن علمك الذي تعلمته ، هل عملت به وعلمته، فقد روى الترمذي
عن أبي برزة نُضْلَةُ بن عبيد الأسلمي رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :
«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ
عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ
فِيمَ أَبْلَاهُ؟»

(١) الفتيلة : الخيط الذي يضيء به المصباح .

(٢) وصححه العلامة الألباني أيضاً .

فأعد للسؤال جوابا، وللجواب صوابا، نسأل الله تعالى أن يوفقنا والمسلمين لما يحبه ويرضاه، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا للعمل بما علمنا، وأن يتقبل منا، وأن يعاملنا سبحانه بلطفه وكرمه، وإحسانه، إنه هو البر الرحيم.

لا يكمل التزيين الظاهر إلا بتزيين الباطن

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: ولا يكمل التزيين الظاهر إلا بتزيين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى ، وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لا تغني شيئا قال الله تعالى: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُؤْوِي سَوْءَ تَكْمُ وَرِيْشًا وَلِبَاسُ النَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسيا لا يصلح لمناجاة الملك في الخلوات إلا من زين ظاهره وباطنه وطهرهما خصوصا ملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى وهو لا ينظر إلى صوركم

وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم فمن وقف بين يديه فليزين له ظاهره باللباس وبباطنه بلباس التقوى (١).

وقد جاء في صحيح مسلم (٢) عن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ، وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وحينئذ، فقد يكون كثير ممن له صورة حسنة، أو مال، أو جاه، أو رئاسة في الدنيا، قلبه خراباً من التقوى، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبه مملوءاً من التقوى، فيكون أكرم عند الله تعالى، بل ذلك هو الأكثر وقوعاً، كما في «الصحيحين» (٣) «عن حارثة بن وهب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ: كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ: كُلُّ عُتْلٍ جَوَاطٍ مُسْتَكْبِرٍ».

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب (ص: ١٨٩).

(٢) أخرجه: مسلم (٢٥٦٤) (٣٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

وإن عجبني لا يكاد ينتهي من أناس يهتمون بتزيين الظاهر ويهملون
تزيين الباطن بل ويلطخونه بأوساخ الذنوب ودَرَئِ المعاصي ،

ولقد أحسن من قال:

عجبت لمن ثوبه لامع ولكن قلبه كالفحمة
فينبغي للإنسان إن يزين ظاهراً وباطناً ، وأجمل لباس يزين به الناس
هو تقوى الله تعالى

وما لبس الإنسان أبهى من التقى وإن هو غالى في حسان الملابس
فإن التقى للمرء زاد ورفعة وخير ضياءٍ في ظلام الحنادس
نسأل الله أن يجعلنا بالعلم النافع والعمل الصالح .

الخلوة عن الناس لا سيما أيام الفتن

إننا في زمان اختلط فيه الحابل بالنابل والحق بالباطل ، قل فيه الخير
والأخيار، وكثر فيه الشر والأشرار ، فالسعيد من جنب نفسه الفتن ،
وأقبل على طاعة الله في السر والعلن ، وحافظ على دينه من جلساء
السوء ، ولو أدى ذلك إلى الخلوة والعزلة، فالدين رأس مال

الإنسان، فلا يضيعه بصحبة الأخدان والخلان، الذين يدعونه إلى الهوى والهوان، والبعد عن شريعة الرحمن، ويأمرونه باتباع خطوات الشيطان، فالبعد عن هؤلاء غنيمة، والسلامة لا يعدلها شيء، وقد جاء في الصحيحين (١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شُعْبٍ مِنَ الشُّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ» .

وفي رواية: «يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ» .

وفي هذا الحديث: فضل العزلة عند خوف الفتنة، ولا ينافيه حديث: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» . ونحوه، لأن هذا يختلف بحسب الأوقات، والأشخاص، والأحوال.

(١) أخرجه: البخاري (٢٧٨٦)، ومسلم (١٨٨٨) (١٢٣).

وروى البخاري في صحيحه (١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ (٢)، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ».

وفي هذا الحديث: أيضًا دليل على فضيلة العزلة لمن خاف على دينه.

وروى مسلم في صحيحه (٣) عن عامر بن سعد، قَالَ: كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَأَاهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَتَزَلَّ فَقَالَ لَهُ: أَنْزَلْتِ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ».

وقد ابتعد الإمام الوزير عن الناس حتى عن أهله؛ ومال إلى الزهد والورع، واشتغل بالذكر والعبادة، وملازمة الخلوات والأماكن الخالية،

(١) أخرجه: البخاري (١٩).

(٢) «شَعَفُ الْجِبَالِ»: أعلاها.

(٣) أخرجه: مسلم (٢٩٦٥) (١١).

كمسجد وهب (١)، ومسجد نُقْم، ومسجد الروية، ومسجد الأخضر، وفي المنازل العالية على سطح الجامع ينقطعُ في بعض هذه الأماكن ثلاثة أشهر: رجب وشعبان ورمضان، ويعتذرُ عن موافقة أهله وأرحامه، ويسألهم إسقاط الحق من الزيارة وعن غيره.

كما كان يذهب إلى المفاوز، وشعاف الجبال، وبطون الأودية، وأقام بعض الوقت في رأس قلة بني مسلم (٢) (جبل سَحَمَر) ووصف حاله بقوله:

| | |
|---|--|
| أَشَمَّ مَنِيفٍ بِالْغَمَامِ مُؤَزَّرُ | فَجِينًا بَطَوْدٍ تُمَطِّرُ السُّحْبُ دُونَهُ |
| حَشَا قَلَمٍ تُتْسِي بِهِ الطَّيْرُ تَصْفُرُ | وَحِينًا بِشَعْبِ بَطْنٍ وَادٍ كَأَنَّهُ |
| فَجِرائِمُهَا لِلْمَرْءِ أَوْلَى وَأَجْدَرُ | أَجَاوِرُ فِي أَرْجَائِهِ الْبُومَ وَالْقَطَا |
| وَالْأَفْوَرْدُ الْعَيْشِ رَنْقٌ مُكَدَّرُ | هُنَالِكَ يَصْفُو لِي مِنَ الْعَيْشِ وَرَدُّهُ |
| فَرَوْضُ الْعُلَا وَالْعِلْمِ وَالِدِينَ أَخْضَرُ | فَإِنْ بَيَسْتُ ثُمَّ الْمَرَاعِي وَأَجْدَبْتُ |
| وَلَكِنَّ عَارًا عَجَزُهُ حِينَ يُنْصَرُ | وَلَا عَارَ أَنْ يَنْجُو كَرِيمٌ بِنَفْسِهِ |
| وَفَرًّا إِلَى أَرْضِ النِّجَاشِيِّ جَعْفَرُ | فَقَدْ هَاجَرَ الْمُخْتَارُ قَبْلِي وَصَحْبُهُ |

(١) مسجد وهب بن منبه في العرضي الأعلى جنوب باب اليمن.

(٢) جبل مشهور في عزلة بني مسلم من أعمال يريم وما يزال في أعلى هذا الجبل بقية مسجد يدعى مدرسة ابن الوزير نسبة إليه.

فهو في هذه الأبيات يصف حالته هائماً في جبال عالية، وبواد خالية وعلى الرغم من ذلك أمسك بقلمه يُدافع عن الحق منشداً في حزن وألم وتوجع:

يقول الشوكاني رحمه الله وهو يصف انقطاعه عن الناس: إنه بعد هذا أقبل على العبادة، وتمشّخ وتوحش في الفلوات، وانقطع عن الناس، ولم يبق له شغلة بغير ذلك، وتأسّف على ما مضى من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه مع أنه في جميعها مشغول بالتصنيف، والتدريس، والذب عن السنة والدفع عن أعراض أكابر العلماء، وأفاضل الأمة، والمناضلة لأهل البدع، ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرض لم يألّف أهلها ذلك لا سيما في تلك الأيام، فله أجر العلماء العاملين، وأجر المجاهدين المجتهدين ؛ ولكنه ذاق حلاوة

العبادة وطعم لذة الانقطاع إلى جناب الحق فصغر في عينيه ما سوى ذلك (١)

يَا مُؤَنَسَ الْأَبْرَارِ فِي خَلَوَاتِهِمْ يَا خَيْرَ مَنْ حَطَّتْ بِهِ النُّزَالُ
مَنْ نَالَ حُبَّكَ لَا يَنَالُ تَفْجَعًا الْقَلْبُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَاكَ مُحَالُ
قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: قِيلَ لِمَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ وَهُوَ جَالِسٌ فِي
بَيْتِهِ وَحْدَهُ: أَلَا تَسْتَوْحِشُ؟ فَقَالَ: وَيَسْتَوْحِشُ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا؟ . وَكَانَ
حَبِيبُ أَبِي مُحَمَّدٍ يَخْلُو فِي بَيْتِهِ وَيَقُولُ: مَنْ لَمْ تَقَرَّ عَيْنُهُ بِكَ، فَلَا قَرَّتْ عَيْنُهُ،
وَمَنْ لَمْ يَأْنَسْ بِكَ، فَلَا أُنْسَ. وَقَالَ غَزْوَانُ: إِنِّي أَصَبْتُ رَاحَةَ قَلْبِي فِي
مُجَالَسَةِ مَنْ لَدَيْهِ حَاجَتِي. وَقَالَ مُسْلِمٌ بْنُ يَسَارٍ: مَا تَلَذَّذَ الْمُتَلَذِّذُونَ بِمِثْلِ
الْخُلُوةِ بِمُنَاجَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَقَالَ مُسْلِمٌ الْعَابِدُ: لَوْلَا الْجَمَاعَةُ، مَا
خَرَجْتُ مِنْ بَابِي أَبَدًا حَتَّى أَمُوتَ، وَقَالَ: مَا يَجِدُ الْمُطِيعُونَ لِلَّهِ لَذَّةً فِي
الدُّنْيَا أَحْلَى مِنَ الْخُلُوةِ بِمُنَاجَاةِ سَيِّدِهِمْ، وَلَا أَحْسَبُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ
عَظِيمِ الثَّوَابِ أَكْبَرَ فِي صُدُورِهِمْ وَالَّذِي فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، ثُمَّ غُشِيَ
عَلَيْهِ. وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ، قَالَ: أَعْلَى الدَّرَجَاتِ أَنْ تَنْقَطِعَ إِلَى رَبِّكَ،

(١) انظر كتاب «الفضائل» لأحمد بن عبد الله الوزير، و«العواصم والقواصم في الذب عن سنة

أبي القاسم» (١/ ٦٧) ت شعيب الأرناؤوط.

وَتَسْتَأْنِسُ إِلَيْهِ بِقَلْبِكَ وَعَقْلِكَ وَجَمِيعِ جَوَارِحِكَ حَتَّى لَا تَرْجُوَ إِلَّا رَبَّكَ
وَلَا تَخَافَ إِلَّا ذَنْبَكَ، وَتَرْسَخَ مَحَبَّتَهُ فِي قَلْبِكَ حَتَّى لَا تُؤَثِّرَ عَلَيْهَا شَيْئًا،
فَإِذَا كُنْتَ كَذَلِكَ لَمْ تُبَالِ فِي بَرِّ كُنْتَ، أَوْ فِي بَحْرٍ، أَوْ فِي سَهْلٍ، أَوْ فِي جَبَلٍ،
وَكَانَ شَوْقُكَ إِلَى لِقَاءِ الْحَبِيبِ شَوْقَ الظَّمَانِ إِلَى الْمَاءِ الْبَارِدِ، وَشَوْقَ
الْجَائِعِ إِلَى الطَّعَامِ الطَّيِّبِ، وَيَكُونُ ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَكَ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَأَحْلَى
مِنَ الْمَاءِ الْعَذْبِ الصَّافِي عِنْدَ الْعَطْشَانِ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ (١). وَالْمُحِبُّونَ
يَسْتَوْحِشُونَ مِنْ كُلِّ شَاغِلٍ يَشْغُلُ عَنِ الذِّكْرِ، فَلَا شَيْءَ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ
الْخُلُوةِ بِحَبِيبِهِمْ.

فَهِيَ فِي الْوَحْدَةِ أَنْسَى
فَأَحَقُّ النَّاسِ نَفْسَى
جَنْسُهُمْ مِنْ شَرِّ جَنْسٍ
عِنْدَ تَأْذِينِي لِحُمْسٍ (٢)

أَنْسَتْ نَفْسِي بِنَفْسِي
وَإِذَا أَنْسَتْ غَيْرِي
فَسَدَ النَّاسُ فَأَضْحَى
فَلَزِمْتُ الْبَيْتَ إِلَّا

(١) «جامع العلوم والحكم» ص ٨٤.

(٢) «العزلة» للخطابي (ص: ٢٠).

ولقد كان أهل العلم يحبون العبادات في الخلوات، والإكثار من القرب والطاعات، ويتلذذون بذلك ، ومن هؤلاء العلماء الأجلاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله ، يقول عنه تلميذه العلامة ابن القيم رحمته الله في «مدارج السالكين» حَدَّثَنِي بَعْضُ أَقَارِبِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رحمته الله قَالَ: كَانَ فِي بَدَايَةِ أَمْرِهِ يُخْرُجُ أَحْيَانًا إِلَى الصَّحَرَاءِ يَخْلُو عَنِ النَّاسِ، لِقُوَّةِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ. فِتْبَعْتُهُ يَوْمًا فَلَمَّا أَصْحَرَ تَنَفَّسَ الصُّعْدَاءُ (١). ثُمَّ جَعَلَ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ - وَهُوَ لِمَجْنُونٍ لَيْلَى مِنْ قَصِيدَتِهِ الطَّوِيلَةِ - :

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ بِالسَّرِّ خَالِيًا^٢
وكانت كلمته المشهورة: ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري أتى رحت، فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة (٣).

(١) أي: تنفّس نفسًا طويلاً من همٍّ أو تعب، أحسّ بالراحة والاطمئنان.

(٢) «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» (٣/ ٦١).

(٣) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص: ٤٨).

ولا شك أن العزلة فيها مصالح كثيرة من التفرغ للعبادة، والسلامة من المعاصي الحاصلة بالمخالطة ؛ كالرياء والغيبة والنميمة ونحو ذلك ، وكذلك مخالطة الناس والصبر على أذاهم وتعليمهم أمر دينهم فيه خير عظيم ، والأنسان ينظر في ذلك ما هو أصلح له وأنفع .

وقد روى الإمام البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨) بسند صحيحه العلامة الألباني **رحمته الله** عَنْ ابْنِ عُمَرَ **رضي الله عنهما** عَنِ النَّبِيِّ **صلوات الله عليه وآله وسلم** قَالَ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ».

وقد بين الإمام الخطابي رحمته الله ضابط العزلة ؛ وكأنه لا يراها بصفة دائمة ، وإنما قصده الإقلال من المخالطة، وقد ذكر قول الإمام الشافعي لصاحبه : يا يونس الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: الْإِنْتِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِلْعِدَاوَةِ وَمَعْرِفَتُهُمْ مَكْسَبَةٌ لِقَرِينِ السُّوءِ: فَكُنْ لِلنَّاسِ بَيْنَ الْمُتَقَبِّضِ وَالْمُقَارِبِ، فَإِنَّ خَيْرَ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا.

وَأَنشَدَ أَبُو زَيْدٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا مَا عَمَمَتِ النَّاسَ بِالْأَنْسِ لَمْ تَزَلْ لِصَاحِبِ سُوءٍ مُسْتَفِيدًا وَكَاسِبًا
وَأِنْ تُقْصِصَهُمْ يَرْمُوكَ عَنْ سَهْمِ بُغْضَةٍ فَكُنْ خَلِطًا إِنْ شِئْتَ أَوْ كُنْ مُجَانِبًا
فَلَا تَدُنُّونَ مِنْهُمْ وَلَا تُقْصِصِيَهُمْ وَلَكِنْ أَمْرًا بَيْنَ ذَلِكَ مُقَارِبًا

وقال الخطابي رحمه الله: وَأَمَّا عَزْلُهُ الْأَبْدَانِ وَمُفَارَقَةُ الْجَمَاعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَوَامُّ فَإِنَّ مِنْ حُكْمِهَا أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لِلْحَاجَةِ وَجَارِيَةً مَعَ الْمُصْلَحَةِ وَذَلِكَ أَنَّ عِظَمَ الْفَائِدَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِي الْمَدْنِ وَتَجَاوُرِهِمْ فِي الْأَمْصَارِ إِنَّهَا هُوَ أَنْ يَتَصَافَرُوا فَيَتَعَاوَنُوا وَيَتَوَازَرُوا فِيهَا إِذْ كَانَتْ مَصَالِحُهُمْ لَا تَكْمُلُ إِلَّا بِهِ وَمَعَايِشُهُمْ لَا تَزْكُو إِلَّا عَلَيْهِ. فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَمَّلَ حَالَ نَفْسِهِ فَيَنْظُرَ فِي آيَةِ طَبَقَةِ يَقَعُ مِنْهُمْ وَفِي آيَةِ جَنَبَةٍ يَنْحَازُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ فَإِنْ كَانَتْ أَحْوَالُهُ تَقْتَضِيهِ الْمَقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْعَامَّةِ لِمَا يُلْزَمُهُ مِنْ إِصْلَاحِ الْمِهْنَةِ الَّتِي لَا غُنْيَةَ لَهُ بِهَ عَنْهَا وَلَا يَجِدُ بُدًّا مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِهِمْ فِيهَا وَلَا وَجَهَ لِمُفَارَقَتِهِمْ فِي الدَّارِ

وَمُبَاعَدَتِهِمْ فِي السَّكَنِ وَالْجَوَارِ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ تَضَرَّرَ بِوَحْدَتِهِ وَأَصْرَرَ
بِمَنْ وَرَاءَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأُسْرَتِهِ. وَإِنْ كَانَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّهَا مُسْتَقِلَّةً وَحَالُهُ فِي
ذَاتِهِ وَذَوِيهِ مُتَمَاسِكَةً فَلَا اخْتِيَارَ لَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ اعْتِزَالِ النَّاسِ وَمُفَارَقَةِ
عَوَامِّهِمْ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي مُجَانِبَتِهِمْ وَالرَّاحَةَ فِي التَّبَاعُدِ مِنْهُمْ. وَلَسْنَا نُرِيدُ،
رَحِمَكَ اللَّهُ، بِهَذِهِ الْعُزْلَةِ الَّتِي نَخْتَارُهَا مُفَارَقَةَ النَّاسِ فِي الْجُمُعَاتِ
وَالْجُمُعَاتِ وَتَرْكَ حُقُوقِهِمْ فِي الْعِبَادَاتِ وَإِفْشَاءِ السَّلَامِ وَرَدِّ التَّحِيَّاتِ
وَمَا جَرَى مُجَرَّاهَا مِنْ وَظَائِفِ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ لَهُمْ وَوَضَائِعِ الشُّنَنِ
وَالْعَادَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ فَإِنَّهَا مُسْتَنَاءَةٌ بِشَرَائِطِهَا جَارِيَةٌ عَلَى سُبُلِهَا
مَا لَمْ يَحُلْ دُونَهَا حَائِلٌ شُغْلٍ وَلَا يَمْنَعُ عَنْهَا مَانِعٌ عُذْرٍ. إِنَّمَا نُرِيدُ بِالْعُزْلَةِ
تَرْكَ فُضُولِ الصُّحْبَةِ وَنَبَذَ الزِّيَادَةِ مِنْهَا وَحَطَّ الْعِلَاقَةَ الَّتِي لَا حَاجَةَ بِكَ
إِلَيْهَا فَإِنَّ مَنْ جَرَى فِي صُحْبَةِ النَّاسِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ عَلَى مَا
يَدْعُو إِلَيْهِ شَغَفُ النُّفُوسِ، وَالِافْتِصَادِ فِيهَا وَتَرْكَ الْإِفْتِصَادِ فِيهَا
وَالِاقْتِصَارِ الَّذِي تَدْعُوهُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ كَانَ جَدِيرًا أَلَّا يَحْمَدَهُ غِبُّهُ وَأَنْ
تُسْتَوْخَمَ عَاقِبَتُهُ وَكَانَ سَبِيلُهُ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ مَنْ يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ فِي غَيْرِ
أَوَانِ جُوعِهِ وَيَأْخُذُ مِنْهُ فَوْقَ قَدْرِ حَاجَتِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُلَبِّئُهُ أَنْ يَقَعَ فِي

أَمْرَاضٍ مُدْنِفَةٍ وَأَسْقَامٍ مُثْلِفَةٍ وَلَيْسَ مَنْ عَلِمَ كَمَنْ جَهَلَ وَلَا مَنْ جَرَّبَ
وَأَمْتَحَنَ كَمَنْ بَادَهُ وَخَاطَرَ. وَلِلَّهِ دُرُّ أَبِي الدَّرْدَاءِ **رضي الله عنه** حَيْثُ يَقُولُ:
وَجَدْتُ النَّاسَ أُخْبِرُ تَقْلُهُ (١).

جعلنا الله وإياكم ممن قدر قدره، فقبل أمره، وأدام في الخلوات ذكره،
وجعل تقوى عالم الخفيات ذخره، إن ربي لسميع الدعاء.

الحث على العبادات في الخلوات

قال ابن الحاج **رحمه الله** في «المدخل»: قال يَمَنُّ بن رزق - رحمه الله تعالى -:
وأنا أوصيك بأن تُطِيلَ النظرَ في مِرَاةِ الْفِكْرَةِ مَعَ كَثَرَةِ الْخَلَوَاتِ، حَتَّى
يُرِيكَ شَيْنَ الْمَعْصِيَةِ وَقُبْحَهَا، فَيَدْعُوكَ ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَى تَرْكِهَا (٢).

(١) قوله (العلاوة) بالكسر أي: الزيادة وقوله: (غبه) أي: عاقبته وآخره. وقوله: (باده) أي:
فاجأ الأمر، وقوله: (أخبر تقله) القلى: البغض، والمعنى: جرب الناس، فإنك إذا جربتهم
قليتهم وتركتهم، لما يظهر من بواطنهم. «العزلة» للخطابي ص (٥٨-٥٩) «منحة العلام»
(١٠/ ٣٨١).

(٢) «المدخل» لابن الحاج (٣/ ٧٤).

وقال ابن الجوزي **رحمه الله** في «الْمُتَّخَبِ»: يا أخي، علامة المحبة طلبُ الخلوة بالحبيب، وبيداء الليل فلوأت الخلوات، لما ستروا قيام الليل في ظلام الدجى غيرةً أن يطلع الغيرُ عليهم - سترهم سبحانه بسترٍ - ﴿

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، لما صفت خلوات الدجى، ونادى أذان الوصال: أقم فلانا، وأنم فلانا - خرجت بالأسماء الجرائد وفاز الأحباب بالفوائد، وأنت غافل راقد. آه لو كنت معهم! أسفاً لك! لو رأيتهم لأبصرت طلائع الصديقين في أول القوم، وشاهدت ساقفة المستغفرين في الركب، وسمعت استغاثة المحبين في وسط الليل، لو رأيتهم يا غافل، وقد دارت كؤوس المناجاة بين مزاهر التلاوات، فأسكرت قلب الواجد، ورقمت في مصاحف الوجنت، تعرفهم بسيماهم، يا طويل النوم، فاتتك مدحة: ﴿

نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وحرمت منحة ﴿

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، يا هذا، إن لله تعالى ريحاً

تُسَمَّى الصَّبِيحَةَ مخزونةً تحتَ العرشِ، تَهْبُّ عندَ الأسحارِ، فتحملُ الدعاءَ والأنينَ والاستغفارَ إلى حضرةِ العزيزِ الجَبَّارِ، انتهى.

فيا أخي الكريم: لقد كان الناس في العصور الأولى يواظبون على العبادات، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم، وهم طول الليل والنهار في طاعة الله، يجتهدون في التقوى والحذر من الشبهات، والشهوات، ويكون على أنفسهم في الخلوات وأما الآن فترى كثيراً من الخلق آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين. مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى. زاعمين أنهم واثقون بكرم الله تعالى وفضله، راجون لعفوه ومغفرته. كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون. فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى، وينال بالهويننا^(١)، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟.

- فلو رأيت بكاءهم في الخلوات .. وعند تلاوة السور والآيات
- لسمعت لصدورهم أنات .. ورأيت في وجوههم حشرات

(١) الهويننا: هي المشي ببطء.

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧].

التحذيرات من ذنوب الخلوات

الواجب على المسلم أن يحذر من ذنوب الخلوات ، فالله تعالى قد ذم من يستخفي بذنبه من الناس، ولا يستخفي من الله، قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (١٠٨) [النساء: ١٠٨].

وقد حذر النبي ﷺ من ذنوب الخلوة والسر، كما جاء في «سنن ابن ماجه» من حديث ثوبان رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا عَلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَّنْثُورًا» قَالَ ثُوبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِيَّاهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ

وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَفْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ
انْتَهَكُوهَا (١) .

أترضى لنفسك يا رعاك الله أن تكون واحداً من هؤلاء المحرومين الذين
كان حظهم من أعمالهم التعب والمشقة، والآخرين في فضائل الله
يتقبلون، ومن عظيم ما أعده ينهلون .

هذا وإن من الذنوب التي قد يستصغرها بعض الناس: إطلاق البصر
في الحرام كمشاهدة الأفلام والمسلسلات وغيرها، والكذب، والغيبة،
والنميمة، وعدم المبالاة في طرق الكسب والتجارة.

وكذلك تحصل ذنوب الخلوات إذا غاب الإنسان عن الرقيب البشري،
إما في خيانة الأمانة أو ترك واجب، لكون الناس لا يرونه، أو ممارسة
المحرمات الخفية التي يستحي من أن يراه الناس عليها، كإقامة
العلاقات المحرمة، ونزع المرأة حجابها حين سفرها؛ لكونها ابتعدت عن

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» وهو في «الصحيح

المستند» برقم (١٨٩).

مجتمعها وبلادها، وغير ذلك من المعاصي التي يمارسها الإنسان إذا غاب عن أعين الناظرين.

فإياك إياك أن يكون الله تعالى أهون الناظرين إليك، تخالف أوامره، وتستجيب للشيطان الرجيم ودواعيه.

يقول سحنون رحمته الله: «إياك أن تكون عدواً لإبليس في العلانية صديقا له في السر» ... إن هذه الذنوب التي تكون في الخلوات من أعظم المهلكات، وهي محرقةٌ للحسنات، وسبب لسوء الخاتمة .

فاحذر أيها المسلم : فقد تكون تلك الهفوات المخفية سبباً لتعلق القلب بها حتى لا يقوى على مفارقتها فيختم له بها فيندم ولات ساعة مندم .

يقول ابن رجب الحنبلي رحمته الله: « خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس » .

فالله الله بإصلاح الخلوات، والصدق مع رب البريات، لنجد بذلك اللذة في المناجاة، والإجابة للدعوات.

الواجب على العاصي في الخلوات

إنه لحري بك أيها العبد العاصي، وجدير بك يا من تقترب الذنوب والمعاصي، أن تتخذ الخلوة وكرّاً للذكر والدعاء، والتوبة الصادقة، ومحراباً لمناجاة الله واللجوء إليه، سائلاً منه أن يتوب عليك، وأن يعفو عنك، متذكراً مرور الليالي والأيام، والشهور والأعوام، مُتَيْقِظاً من رَقَدَات الغفلة، مُتَزَوِّداً من التَّقْوَى قَبْلَ النُّقْلة، مغتنماً لأوقاتك في هذه المهلة، عالماً بقصر الحياة، متيقناً بأن الموت آت، وأنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا بد من وقوعها ﴿إِنَّ السَّاعَةَ ءَآيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥﴾

﴿طه: ١٥﴾ من الخير والشر، وأن مرد الجميع إلى الله ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ

لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: ١٩] .

قال يحيى بن معاذ: ليلك طويل فلا تقصره بمنامك، ونهارك نقي فلا تدنسه بآثامك.

وقال بعض السلف: يا ابن آدم إنما أنت أيام، إذا مرَّ يومٌ نقصَ بعضُك.

وأنشد بعضهم في هذا المعنى شعراً فقال:

الْمَرْءُ عِدَّةُ أَيَّامٍ مَجْمُوعَةٍ وَكُلُّهَا نَقَصَتْ أَيَّامُهُ نَقْصًا
فَكَيْفَ يَهْنَأُ بِعَيْشٍ أَوْ يَلْدُ بِهَا مَنْ كَانَ يُمْسِي وَيُضْحِي الدَّهْرَ مُنْتَقِصًا
كَمْ طَالِبٍ لَمْ يَنْلِ بِالْحَرْصِ حَاجَتَهُ وَنَالَهَا غَيْرُهُ عَفْوًا وَمَا حَرِصًا
وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّمَا أَنْتَ أَيَّامٌ مَجْمُوعَةٌ، كُلُّهَا مَضَى يَوْمٌ مَضَى بَعْضُكَ. وَقَالَ:
ابْنَ آدَمَ إِنَّمَا أَنْتَ بَيْنَ مَطِيئَتَيْنِ يُوضَعَانِكَ، يُوضَعُكَ النَّهَارُ إِلَى اللَّيْلِ،
وَاللَّيْلُ إِلَى النَّهَارِ، حَتَّى يُسَلِّمَنَّكَ إِلَى الْآخِرَةِ، فَمَنْ أَعْظَمُ مِنْكَ يَا ابْنَ آدَمَ
خَطَرًا، وَقَالَ: الْمَوْتُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيكُمْ وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ وَرَائِكُمْ. قَالَ
دَاوُدُ الطَّائِيُّ: إِنَّمَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ مَرَّاحِلٌ يَنْزِلُهَا النَّاسُ مَرَحَلَةً مَرَحَلَةً حَتَّى
يَنْتَهِيَ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى آخِرِ سَفَرِهِمْ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُقَدِّمَ فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ
زَادًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا، فَافْعَلْ، فَإِنَّ انْقِطَاعَ السَّفَرِ عَنْ قَرِيبٍ مَا هُوَ، وَالْأَمْرُ
أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَتَزَوَّدْ لِسَفَرِكَ، وَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ مِنْ أَمْرِكَ، فَكَأَنَّكَ
بِالْأَمْرِ قَدْ بَغْتَكَ.

وَكَتَبَ بَعْضُ السَّلَفِ إِلَى أَخٍ لَهُ: يَا أَخِي يُحْيِلُ لَكَ أَنَّكَ مُقِيمٌ، بَلْ أَنْتَ
دَائِبُ السَّيْرِ، تُسَاقُ مَعَ ذَلِكَ سَوْفًا حَثِيثًا، الْمَوْتُ مَوْجَهُ إِلَيْكَ، وَالدُّنْيَا

تُطَوَّى مِنْ وَرَائِكَ، وَمَا مَضَى مِنْ عُمْرِكَ، فَلَيْسَ بِكَارٍ عَلَيْكَ حَتَّى يَكُرَّ
عَلَيْكَ يَوْمَ التَّعَابُنِ.

سَبِيلَكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ وَلَا بُدَّ مِنْ زَادٍ لِكُلِّ مُسَافِرٍ
وَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حُلٍّ عُدَّةٍ وَلَا سِيَّأَ إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرٍ
قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: كَيْفَ يَفْرَحُ بِالْدُّنْيَا مَنْ يَوْمُهُ يَهْدِمُ شَهْرَهُ، وَشَهْرُهُ
يَهْدِمُ سَنَتَهُ، وَسَنَتُهُ تَهْدِمُ عُمْرَهُ، كَيْفَ يَفْرَحُ مَنْ يَقُودُهُ عُمْرُهُ إِلَى أَجْلِهِ،
وَيَقُودُهُ حَيَاتُهُ إِلَى مَوْتِهِ. **وَقَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ لِرَجُلٍ:** كَمْ أَتَتْ
عَلَيْكَ؟ قَالَ: سِتُّونَ سَنَةً، قَالَ: فَأَنْتَ مُنْذُ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ
يُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، **فَقَالَ الْفُضَيْلُ:**
أَتَعْرِفُ تَفْسِيرَهُ تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ وَإِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَّهُ
إِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مُوقُوفٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مُوقُوفٌ، فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ
مَسْئُولٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ، فَلْيَعِدَّ لِلِسُّؤَالِ جَوَابًا، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَمَا
الْحِيلَةُ؟ قَالَ يَسِيرَةٌ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قَالَ: تُحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ يُغْفَرَ لَكَ مَا مَضَى،
فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فِيمَا بَقِيَ، أَخَذْتَ بِمَا مَضَى وَبِهَا بَقِيَ، **وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ**
بَعْضُهُمْ:

وَأِنْ أَمَرَأَ قَدْ سَارَ سِتِّينَ حِجَّةٍ إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبٌ

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ كَانَتْ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ مَطَايَاهُ، سَارَتْ بِهِ وَإِنْ لَمْ
يَسِرْ، وَفِي هَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مَرَاحِلُ يَحُثُّ بِهَا دَاعٍ إِلَى الْمَوْتِ قَاصِدُ
وَأَعْجَبُ شَيْءٍ لَوْ تَأَمَّلْتَ أَتَهَا مَنَازِلُ تُطَوِّى وَالْمُسَافِرُ قَاعِدُ
وَقَالَ آخَرُ:

أَيَا وَيْحَ نَفْسِي مِنْ نَهَارٍ يَقُودُهَا إِلَى عَسْكَرِ الْمَوْتَى وَلَيْلٍ يَذُودُهَا^(١)
وَرَحِمَ اللَّهُ الْإِمَامَ الْبَخَارِي إِذْ يَقُولُ:

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَةً
كَمْ صَحِيحٌ رَأَيْتَ مِنْ غَيْرِ ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَةً
• فَيَا أَبْنَاءَ الْعَشْرِينَ! كم مات من أقرانكم وتخلفتكم؟!

• وَيَا أَبْنَاءَ الثَّلَاثِينَ! أصبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم؟

• وَيَا أَبْنَاءَ الْأَرْبَعِينَ! ذهب الصبا وأنتم على اللهو قد عكفتم!!

(١) جامع العلوم والحكم ت الأرنبوط (٢ / ٣٨٢).

• **ويا أبناء الخمسين!** أنتم زرع قد دنا حصاده، لقد تنصفتُم المائة وما

أنصفتُم!!

• **ويا أبناء الستين!** أنتم على معترك المنايا قد أشرفتُم، أتلهون وتلعبون؟

لقد أسرفتُم!!

• **ويا أبناء السبعين،** ماذا قدمتم وأخرتم؟

• **ويا أبناء الثمانين،** لا عذر لكم.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ^(١)»

| | |
|--------------------|--------------------|
| يا أسير الغفلات | قد مضى العمر وفات |
| مسرعاً قبل الفوات | حصّل الزاد وبادر |
| عن أمور واضحة | فإلى كم ذا التعامى |
| في بحار الظلمات | وإلى كم أنت غارق |
| بالزواجِر والعظّات | لم يلن قلبك أصلاً |

(١) رواه البخاري في صحيحه معلقاً في كتاب الرقائق باب في الأمل وطوله.

بينما الإنسان يسأل
وتراهم حملوه
أهله يبكوا عليه
أين من قد كان يفخر
وله مال جزيل
سار عنها رغم أنف
كم بها من طول مكث
فاغتم العمر وبادر
واطلب الغفران ممن
ثم ناد في الدياجي
اعف عنا يا رحياً
نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته في السر والعلن ، وأن يعيذنا من
مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن .

ألم يعلم بأن الله يرى

عجباً لهذا العبد الضعيف العاصي كيف يتجرؤ على الذنوب والمعاصي

ألم يدر أن الله يعلم جهره ويعلم ما يخفيه في الخلوات

أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى، وَيَطَّلِعُ عَلَى أَخْوَالِهِ مِنْ هُدَاهُ وَضَلَالِهِ، فَيَجَازِيهِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، وَهَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ وَتَهْدِيدٌ أَكِيدُ.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [١٤] : يرى سبحانه وتعالى علماً ورؤية، فهو سبحانه يرى كل شيء مهما خفي ودق، ويعلم كل شيء مهما بعد، ومهما كثر أو قل، فيعلم الأمر والنهي ويعلم المصلي والساجد، ويعلم من طغى، ومن خضع لله عز وجل، وسيجازي كل إنسان بعمله، والمقصود من هذا تهديد الذي ينهى عبداً إذا صلى، وبيان أن الله تعالى يعلم بحاله، وحال من ينهاه، وسيجازي كلاً منهما بما يستحق. فهذا تهديد لهذا الرجل الذي كان ينهى رسول الله ﷺ عن الصلاة، يعني ألم يعلم هذا الرجل أن الله تعالى يراه ويعلمه، وهو سبحانه وتعالى محيط بعمله، فيجازيه عليه إما في الدنيا، وإما في الدنيا والآخرة (١).

(١) «تفسير العثيمين»: جزء عم (ص: ٢٦٣).

قال بعض العارفين: يخوف الله سبحانه وتعالى عباده مرة بأفعاله فيقول:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ

جَانِبٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا

يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ [لقمان: ٣٣] ، ومرة بصفاته فيقول: ﴿أَلَمْ

يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ [العلق: ١٤] ومرة بذاته فيقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ

نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] .

ولقد جاء التهديد والوعيد لمن عمل عملاً من الأعمال التي لا يحبها الله

جل وعلا فقال عز من قائل ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ،

وَالْمُؤْمِنُونَ وَسِرَدُوتٌ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنشَأُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٥] .

قال الطبري: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَقُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ

الَّذِينَ اعْتَرَفُوا لَكَ بِذُنُوبِهِمْ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ مَعَكَ: ﴿أَعْمَلُوا﴾

لِلَّهِ بِمَا يُرْضِيهِ مِنْ طَاعَتِهِ وَأَدَاءِ فَرَائِضِهِ، ﴿فَسِرَى اللَّهِ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ،﴾

يَقُولُ: فَسَيَرَى اللَّهُ إِنْ عَمِلْتُمْ عَمَلَكُمْ، وَيَرَاهُ رَسُولُهُ. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَسُرْدُوتٌ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ يَعْلَمُ سَرَائِرَكُمْ وَعَلَانِيَتَكُمْ، فَلَا يُخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ بَاطِنِ أُمُورِكُمْ وَظَوَاهِرِهَا.

وقال ابن كثير: قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا وَعِيدٌ، يَعْنِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُخَالِفِينَ أَوَامِرَهُ بِأَنْ أَعْمَاهُمْ سَتَعَرُضُ عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَعَلَى الرَّسُولِ، وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ. وَهَذَا كَائِنٌ لَا مُحَالَاةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [٩] [الطَّارِق: ٩]، وَقَالَ ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [١٠] [الْعَادِيَّاتِ: ١٠] وَقَدْ يَظْهَرُ ذَلِكَ لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا (١).

ولا شك أن العبد يخفي عمله القبيح ولا يجب أن يظهره، وفي هذه الآية تهديد ووعيد لمن عملوا بالمعاصي والآثام وما لا يرضي الله جل وعلا في الخلوات والجلوات، وتخويف لهم من ذلك .

(١) «تفسير الطبري»، «تفسير ابن كثير» عند الآية الكريمة.

فاتقوا الله في السر والعلن ، واجتنبوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،
واتقوا معاصي الله في الخلوات فإن الشاهد هو الحاكم .

إذا رُمت المروءة والمعالي وأن تلقى إله العرش برا
فلا تقرب لدى الخلوات سرا من الأفعال ما تخشاه جهرا
قال الحافظ ابن رجب رحمه الله : فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ حَيْثُ كَانَ، وَأَنَّهُ
مُطَّلِعٌ عَلَى بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَاسْتَحْضَرَ ذَلِكَ فِي خَلَوَاتِهِ،
أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ تَرْكَ الْمَعَاصِي فِي السِّرِّ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى الْإِشَارَةُ فِي الْقُرْآنِ
بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا

﴿١﴾ [النساء: ١] .

كَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: زَهَدْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ فِي الْحَرَامِ زُهْدًا مَنْ
قَدَرَ عَلَيْهِ فِي الْخُلُوةِ، فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، فَتَرَكَهُ مِنْ خَشْيَتِهِ، أَوْ كَمَا قَالَ.
وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: أَعَزُّ الْأَشْيَاءِ ثَلَاثَةٌ: الْجُودُ مِنْ قِلَّةٍ، وَالْوَرَعُ فِي خُلُوةٍ،
وَكَلِمَةُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ يُرْجَى أَوْ يُخَافُ. وَكَتَبَ ابْنُ السَّمَاكِ الْوَاعِظُ إِلَى أَخٍ
لَهُ: أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَجِيكَ فِي سِرِّرَتِكَ وَرَقِيبُكَ فِي

عَلَانِيَتِكَ، فَاجْعَلِ اللَّهَ مِنْ بَالِكَ عَلَى كُلِّ حَالِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَخَفِ
 اللَّهُ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ بِعَيْنِهِ لَيْسَ تَخْرُجُ مِنْ
 سُلْطَانِهِ إِلَى سُلْطَانٍ غَيْرِهِ وَلَا مِنْ مَلِكِهِ إِلَى مَلِكٍ غَيْرِهِ، فَلْيَعْظُمْ مِنْهُ
 حَذْرُكَ، وَلْيَكْثُرْ مِنْهُ وَجَلُّكَ وَالسَّلَامُ.

وَقَالَ أَبُو الْجِلْد: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيِّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: قُلْ لِقَوْمِكَ: مَا
 بِالْكُمُ تَسْتُرُونَ الذُّنُوبَ مِنْ خَلْقِي، وَتُظْهِرُونَهَا لِي؛ إِنْ كُنتُمْ تَرَوْنَ أَنِّي لَا
 أَرَاكُمْ، فَانْتُمْ مُشْرِكُونَ بِي، وَإِنْ كُنتُمْ تَرَوْنَ أَنِّي أَرَاكُمْ فَلِمَ جَعَلْتُمُونِي
 أَهْوَنَ النَّاطِرِينَ إِلَيْكُمْ؟ وَكَانَ وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ يَقُولُ: خَفِ اللَّهَ عَلَى قَدْرِ
 قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاسْتَحْيِ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: عِظْنِي،
 فَقَالَ لَهُ: اتَّقِ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ أَهْوَنَ النَّاطِرِينَ إِلَيْكَ. وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ
 يَقُولُ: أَتُرَاكَ تَرْحَمُ مَنْ لَمْ تُقَرَّرْ عَيْنُهُ بِمَعْصِيَتِكَ حَتَّى عِلِمَ أَنْ لَا عَيْنَ تَرَاهُ
 غَيْرَكَ؟

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: ابْنُ آدَمَ إِنْ كُنْتَ حَيْثُ رَكِبْتَ الْمَعْصِيَةَ لَمْ تَصِفْ لَكَ مِنْ
 عَيْنٍ نَاطِرَةٌ إِلَيْكَ، فَلَمَّا خَلَوْتَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ صَفَتْ لَكَ مَعْصِيَتُهُ، وَلَمْ
 تَسْتَحْيِ مِنْهُ حَيَاءَكَ مِنْ بَعْضِ خَلْقِهِ، مَا أَنْتَ إِلَّا أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِنْ كُنْتَ

ظَنَنْتَ أَنَّهُ لَا يَرَاكَ، فَقَدْ كَفَرْتَ، وَإِنْ كُنْتَ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَرَاكَ فَلَمْ يَمْنَعْكَ مِنْهُ مَا مَنَعَكَ مِنْ أَضْعَفِ خَلْقِهِ لَقَدْ اجْتَرَأْتَ عَلَيْهِ. دَخَلَ بَعْضُهُمْ غِيْصَةً (١) ذَاتَ شَجَرٍ، فَقَالَ: لَوْ خَلَوْتُ هَاهُنَا بِمَعْصِيَةِ مَنْ كَانَ يَرَانِي؟ فَسَمِعَ

هَاتِفًا بِصَوْتٍ مَلَأَ الْغِيْصَةَ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤)

[الملك: ١٤]. رَاوَدَ بَعْضُهُمْ أَعْرَابِيَّةً، وَقَالَ لَهَا: مَا يَرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ، قَالَتْ: أَيْنَ مَكْوَلِكُنَّ؟ رَأَى مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ رَجُلًا وَقِيفًا مَعَ امْرَأَةٍ يُكَلِّمُهَا فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرَاكُمَا سَتَرْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمَا.

وَقَالَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيُّ: الْمُرَاقَبَةُ عِلْمُ الْقَلْبِ بِقُرْبِ الرَّبِّ. وَسُئِلَ الْجُنَيْدُ بِمَ يُسْتَعَانُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ، قَالَ بِعِلْمِكَ أَنَّ نَظَرَ اللَّهِ إِلَيْكَ أَسْبَقُ مِنْ نَظْرِكَ إِلَى مَا تَنْظُرُهُ. وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ يُنْشِدُ:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً
وَلَا أَنْ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
وَكَانَ ابْنُ السَّكَّاكِ يُنْشِدُ

(١) «الغِيْصَةُ»: جمع الشجر في فيض الماء والشجر الكثير المتلف.

يَا مُدْمِنَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحْيِي وَاللَّهُ فِي الْخُلُوءِ ثَانِيكَا
 غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْنَاهُ وَسَتْرُهُ طَوْلَ مَسَاوِيكَا (١)
 نسأل الله أن يجعلنا من عباده المحسنين المراقبين له في السر والعلن، وأن يعيذنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

لا يكن الله أهون الناظرين إليك

إذا هممت بالمعصية فتذكر نظر الله إليك ، وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يراك حيثما كنت ، ويسمع كلامك ، ويعلم سرّك وجهرك، وما توسوس به نفسك ، فلا تجعل الله أهون الناظرين إليك ، ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وَإِذَا خَلُوتَ بِرَبِّكَ فِي ظُلْمَةٍ وَالنَّفْسُ دَاغِيَةٌ إِلَى الطُّغْيَانِ
 فَاسْتَحْيِ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي
 الله الله في مراقبة الله في الخلوات، الله الله في إصلاح البواطن والنيات ، فإن عليك من الله عينا ناظرة ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ (٢٨) وَتَقَبَّلَكَ فِي

السَّجْدَيْنِ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠].

من كَانَ يَخْشَى اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ فليكثر العبرات في الخلوات
فَلَعَلَّهُ بَعْدَ التَّذَكُّرِ والبكا بدلت لَهُ العبرات بالحَسَنَاتِ
وتخفف الأوزار عَن منشوره يَوْمَ الحِسَابِ وموقف الحسرات

الجوالات والقنوات وذنوب الخلوات

إن من النعم التي أسداها الله إلينا في هذا الزمان والتي لم توجد في أسلافنا الذين مضوا ، نعمة تسهيل المواصلات ومن ذلك نعمة الجوال هذه النعمة التي غفل عنها كثير من الناس فلم يعرفوا لها قدرا ولم يشكروا الله عليها إلا من رحم الله وقليل ما هم ، فقد وفرت هذا الجوالات بحمد الله كثيراً من الجهد والوقت والمال فيإمكان المتصل أن يقضي الكثير من المهام بأقل تكلفة وأقصر وقت وأيسر جهد بينما كان الناس قبل خروجها يسافرون المسافات الطويلة ويقضون الأوقات الكثيرة وينفقون الأموال الطائلة في قضاء حوائجهم فيسر الله بهذه الأجهزة فلله الحمد والمنة . بالإضافة إلى اشتغالها على العديد من الخدمات كالمنبه والمسجل والساعة والتأريخ والحاسبة وغير ذلك من

الإيجابيات التي يغني الجوال عن شرائها، فالجوال نعمة وربما صار نقمة إذا استخدم فيما يغضب الله، وما أكثر الذين يستخدمون هذه الجوالات فيما يسخط الله رب الأرض والسموات، لا سيما خفافيش الظلام وهم الذين يؤذون المسلمين في محارمهم ويتبعون عوراتهم ويتحينون الفرص وقت غفلتهم فيحاولون انتهاك أعراضهم فيؤذونهم عن طريق جوالاتهم إنهم سفهاء الأحلام وجلساء المسلسلات والأفلام وأراذل العوام وأشباه الهوام ، من إذا خلوا بالظلام أفسدوا وإذا استرسلوا بالكلام عبثوا وأربدوا تجد أحدهم يستقطب أرقاما أو يقلبها ثم يدق على هذا وذاك فإن أجابه رجل أو عجوز سكت وذاب وخاف وقال معذرا أخطأت في الاتصال وإن سمع صوتا ناعما طرب وفرح فتارة يقع الذباب على الوسخ وتارة يقع على الزجاج لا يستفيد شيئا فلا يجد إلا السب والشتم والقدح فهو بين سخطين سخط الخالق وسخط المخلوق لا سيما وقد أتاحت الشركات المجال لهؤلاء الفساق وذلك بتخفيض سعر المكالمات لا سيما في الوقت الأخير من الليل في حين غفلة الناس فيحصل من الفساد ما الله به عليم وقد حصل بسبب ذلك

شر عريض ونسي هؤلاء الخفافيش أن لهم من المحارم والعورات ما
لغيرهم فليستحيوا من الله وليحذروا غضب الله فإنه عزيز ذو انتقام،
فصدق في هؤلاء قول الشاعر

خفافيش أخفاها النهار بضوئه ولاءمها قطع من الليل باديا
فصالت وجالت فيه حتى إذا النـ هار بدا استخفت وأبدت تواريا
فننصح النساء ذوات الجوالات بأن يحتفظن بأرقامهن الهاتفية ولا
يعطينها إلا من يثقن بهن من بنات جنسهن ولا يعطينهن نساء خائنات
ينشرن أرقامهن هنا وهناك حتى تصل إلى السفهاء من الرجال كما أنصح
النساء بأن يحفظن الأمانة، وذلك بالاحتفاظ بأسرار وأرقام صديقاتهن
فلا تسلم المرأة أرقام صديقاتها لأقاربها الرجال ولا تفرط في ذلك حتى
لا يعثر الرجال على تلك الأرقام؛ وإلا يخشى عليها من النفاق لأنها
خانت من ائتمنتها؛ والنبي ﷺ يقول : «آية المنافق ثلاث إذا حدث
كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» رواه البخاري رقم (٢٥٣٦)
ومسلم رقم (٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ فإذا خانت المرأة أختها
في عرضها يخشى عليها أن يكشف الله سترها لأن الجزاء من جنس

العمل وكيفما تدين تدان !! وكذلك ننصح الرجل ألا يعطي أرقام محارمه للرجال ولو كانوا أصدقاء وألا يعطيهم جواله فينظروا إلى أرقامه فإن الشيطان حريص على الإفساد بين الناس بشتى الوسائل وله مداخل وخطوات . فلينتبه لهذا الأمر؛ كما ينبغي على المرأة إذا رأت رقماً غير معروف ألا ترد عليه إذا كان من هذا الصنف فإنه سرعان ما ينكل ويولى إذا لم يجد بغيته وهو يجر أذيال الخزي والعار ولا تبالي بالتجريسات والأرقام المجهولة والأذى في الرنات إذا كانت من هؤلاء السفلة ولا ترد عليهم ولو للعتاب فإن بغيتهم أن يسمعهم أصواتهن ولو بالسب والثلب . **وكما قيل :**

أو كلما طن الذباب زجرته إن الذباب إذاً علي كريم
وقال آخر :

لو كل كلب عوى ألقمته حجراً كان الحصى كل مثقال بدينار
فيجب على المسلم أن يبتعد عن شر الجوال وغوائله، وشر الإنترنت وتوابعه ، وأن لا يستعمله إلا في طاعة الله أو في أمر مباح في شريعة الله

وأن يتعد عن المصادقة المحرمة والنظر في الصور المحرمة، وأن يعلم أن الله معه حيث كان بعلمه واطلاعه قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وكما أنه يجب على المسلم أن ينأى بنفسه عن شر الجوال والإنترنت فكذلك ينبغي له أو يجب عليه ألا يحرم نفسه من خيره، خصوصاً إذا كان ذا دراية، وتخصص فيه؛ فلا يحسن به أن يكون قصاراه ألا يقع في المحذور.

بل عليه أن يقدم النافع المفيد، من المشاركات الهادفة، والاقتراحات النافعة، والدلالة على المواقع الإسلامية الموثوقة.

كما أن عليه ألا يحقر نفسه في إنكار ما يراه من منكر أو قبيح في الإنترنت كل ذلك بحسب قدرته واستطاعته.

وأخيراً إليك أيها الأخ الكريم هذه التساؤلات:

ألا تشعر - وأنت تقلب بصرك في الصور الخليعة - بظلمة في قلبك،
ووهن في بدنك، وزهد بالفضيلة ورغبة في الرذيلة؟!

ألا تحس - وأنت تطالع المهارات، وتصيغ سمعك لما يقال في فلان
وفلان - بقسوة في قلبك، وإساءة في ظنك، وتشاؤم في نظرتك.

ألا تشعر - إذا قضيت الساعات الطوال أمام الإنترنت بلا فائدة -
بضيق في صدرك، وتكسّر لحاجاتك؟ حتى إنك لا تطيق من بجانبك،
ولا تحرص على الرد بمن يتصل بك عبر الهاتف؟

وفي مقابل ذلك ألا تشعر بنشاط، وأنس، وسرور وقوة إذا قدمت الخير،
وغضضت البصر عن الحرام، واتقيت الله في الخلوة؟!

أسأل الله - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى - أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها
وما بطن، وأن يجعلنا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، مباركين أينما كنا
(١)، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) «أرشيف ملتقى أهل الحديث» (٦٦ / ٤٢) .

ذنوب الخلوات من علامات النفاق

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَفُؤَ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: ١٤].

قال الإمام الطبري: وَهَذِهِ الْآيَةُ نَظِيرُ الْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ فِيهَا عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِخِدَاعِهِمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٨]، ثُمَّ أَكْذَبَهُمْ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] وَأَتَمَّهُمْ بِقِيلِهِمْ ذَلِكَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا. وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُصَدِّقِينَ بِاللَّهِ وَكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ بِالْإِسْتِخْفِ: آمَنَّا وَصَدَقْنَا بِمُحَمَّدٍ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، خِدَاعًا عَنْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَذَرَائِعِهِمْ، وَدَرَاءً لَهُمْ عَنْهَا، وَأَتَمَّهُمْ إِذَا خَلَوْا إِلَىٰ مَرَدَّتِهِمْ وَأَهْلِ الْعُتُوِّ وَالشَّرِّ وَالْخُبْثِ مِنْهُمْ وَمِنْ سَائِرِ أَهْلِ الشَّرِّ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ مِثْلِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَهُمْ شَيَاطِينُهُمْ. قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ أَي: إِنَّا مَعَكُمْ عَلَىٰ

دِينَكُمْ، وَظَهَرَاؤُكُمْ عَلَى مَنْ خَالَفَكُمْ فِيهِ، وَأَوْلِيَاؤُكُمْ دُونَ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَأَصْحَابِهِ .

قال السعدي رحمه الله: هذا من قولهم بألستهم ما ليس في قلوبهم، و ذلك أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين، أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزئون بالمؤمنين بإظهارنا لهم، أنا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله (١).

فالحذر أخي المسلم من **ذنوب الخلوات** فإنها من علامات النفاق: -

قال يحيى بن معاذ: مَنْ ستر عن الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

(١) «تفسير الطبري» و«السعدي» عن الآية الكريمة.

ذنوب الخلوات سبب لسوء الخاتمة

جاء في الصحيحين (١) عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ التَقَى هُوَ وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا فَلَمَّا مَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الْآخَرُونَ إِلَى عَسْكَرِهِمْ، وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ لَا يَدْعُ لَهُمْ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً إِلَّا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فَقَالُوا مَا أَجْزَأُ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كَمَا أَجْزَأَ فُلَانٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: أَنَا صَاحِبُهُ قَالَ فَخَرَجَ مَعَهُ كُلُّمَا وَقَفَ وَقَفَ مَعَهُ، وَإِذَا أَسْرَعَ أَسْرَعَ مَعَهُ؛ قَالَ فَجَرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عَلَى نَفْسِهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَخَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ: وَمَا ذَاكَ قَالَ: الرَّجُلُ الَّذِي ذَكَرْتَ أَنِفًا أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَأَعْظَمَ النَّاسُ ذَلِكَ، فَقُلْتُ: أَنَا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ فِي طَلَبِهِ، ثُمَّ جَرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتُ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ فِي الْأَرْضِ، وَذُبَابُهُ بَيْنَ ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢) (١٧٩).

تَحَامَلَ عَلَيْهِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِيهِا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ النَّارِ فِيهِا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

وفي رواية للبخاري «وَأَيْتُمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ».

قال ابن رجب رحمه الله: وقوله: «فِيهِا يَبْدُو لِلنَّاسِ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَاطِنَ الْأَمْرِ يَكُونُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَأَنَّ خَاتِمَةَ السُّوءِ تَكُونُ بِسَبَبِ دَسِيسَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْعَبْدِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، إِمَّا مِنْ جِهَةِ عَمَلٍ سَيِّئٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فِتْلِكَ الْخُصْلَةُ الْخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الْخَاتِمَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَعْمَلُ الرَّجُلُ عَمَلًا أَهْلُ النَّارِ وَفِي بَاطِنِهِ خُصْلَةٌ خَفِيَّةٌ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ، فَتَغْلِبُ عَلَيْهِ تِلْكَ الْخُصْلَةُ فِي آخِرِ عُمُرِهِ، فَتُوجِبُ لَهُ حُسْنَ الْخَاتِمَةِ. قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَادٍ: حَضَرْتُ رَجُلًا عِنْدَ الْمَوْتِ يُلَقِّنُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَالَ فِي آخِرِ مَا قَالَ: هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَإِذَا هُوَ مُدْمِنٌ خَمْرٍ.

فَكَانَ عَبْدُ الْعَزِيزِ يَقُولُ: اتَّقُوا الذُّنُوبَ، فَإِنَّهَا هِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْهُ.

- ولقد كان خوف السلف يشتدُّ من سوءِ الخواتيم:

قَالَ سُفْيَانُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ: هَلْ أَبْكَاكَ قَطُّ عِلْمُ اللَّهِ فِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ: تَرَكَنِي لَا أَفْرَحُ أَبَدًا. وَكَانَ سُفْيَانُ يَشْتَدُّ قَلْقُهُ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْخَوَاتِيمِ، فَكَانَ يَبْكِي وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَكُونَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ شَقِيًّا، وَيَبْكِي، وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أُسَلَبَ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ.

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ يَقُومُ طَوْلَ لَيْلِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ عَلِمْتُ سَاكِنَ الْجَنَّةِ مِنْ سَاكِنِ النَّارِ، فَفِي أَيِّ الدَّارَيْنِ مَنْزِلُ مَالِكٍ؟.

وقال بعضهم: ذنوب الخلوات تؤدي الى الإنتكاسات، وطاعة الخلوات طريق للثبات حتى الممات بإذن الله (١).



(١) «جامع العلوم والحكم» ت الأرنبوط (١ / ١٧٣)، «دروس تربوية من الأحاديث النبوية»

الجرأة على المعاصي في الخلوات

إلى كل من يتجرؤ على معصية الله ويبارس في الخلوات أسوء الأعمال،
لئن غابت عنك عيون الناس فلن تغيب عنك عين الله الكبير المتعال.

قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ
۝٩ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَن أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ، وَمَن هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلِيلٍ
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد: ٨ - ١٠]

إن عدم الخوف من الله جل وعلا وانتهاك محارمه في السر والخلوات من
أعظم أسباب حبوط الأعمال، فقد روى ابن ماجه (١) عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا عَلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا» قَالَ
ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلَّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا

(١) رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه». وهو في «الصحيح

نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا».

فتأمل هذا الحديث العظيم، وراقب الله الكريم واعص هواك والشيطان الرجيم، فطوبى لمن راقب الرحمن وعصى هواه والشيطان، قال الله

تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ

الْمَأْوَىٰ ۖ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١] يَقُولُ سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ﴾

مَسْأَلَةَ اللَّهِ إِيَّاهُ عِنْدَ وُقُوفِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَاتَّقَاهُ، بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ،

وَاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ ﴿٤٠﴾﴾ يَقُولُ: وَنَهَى نَفْسَهُ عَنِ

هَوَاهَا فِيمَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ، وَلَا يَرْضَاهُ مِنْهَا، فَزَجَرَهَا عَنْ ذَلِكَ، وَخَالَفَ

هَوَاهَا إِلَى مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ ﴿٤١﴾﴾ يَقُولُ: فَإِنَّ الْجَنَّةَ

هِيَ مَأْوَاهُ وَمَنْزِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وقال ابن كثير: أَي: خَافَ الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَخَافَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا، وَرَدَّهَا إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (٤١) أَي: مُنْقَلَبُهُ وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ.

وقال السعدي في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أَي: خَافَ الْقِيَامَ عَلَيْهِ وَمَجَازَاتِهِ بِالْعَدْلِ، فَأَثَّرَ هَذَا الْخَوْفُ فِي قَلْبِهِ فَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا الَّذِي يَصْطَدُّهَا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَصَارَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، وَجَاهَدَ الْهَوَى وَالشَّهْوَةَ الصَّادِينَ عَنِ الْخَيْرِ، ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾ الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى كُلِّ خَيْرٍ وَسُرُورٍ وَنَعِيمٍ ﴿هِيَ الْمَأْوَى﴾ لِمَنْ هَذَا وَصْفُهُ.

وقال مقاتل: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ : هُوَ الرَّجُلُ يَهْتَمُّ بِالْمَعْصِيَةِ، فَيُذَكِّرُ مَقَامَهُ لِلْحِسَابِ، فَيَتْرُكُهَا (١). وَدُونِكَ أَخِي الْكَرِيمُ بَعْضُ الْأَثَارِ فِي ذِمِّ الْهَوَى عَسَى أَنْ تَكُونَ مَذْكُورَةً وَرَادَعَةً لِمَنْ فِي الشَّرِّ قَدْ هَوَى، وَعَصَى رَبَّهُ فَعَوَى، فَيَعُودُ إِلَى الْخَيْرِ وَالْهُدَى، وَهَذِهِ ذِكْرِي وَالذِّكْرُ يُنْفَعُ

(١) انظر: تفسير الطبري، وابن كثير، والسعدي، وزاد المسير، عند الآية الكريمة.

المؤمنين، فتأمل هذه الآثار ، عسى أن تلحق بركب الأخيار، فإليكمها وفقك الله وأعانك على طاعته، وأبعدك عن معصيته.

قال الحسن البصري رحمه الله: «الهوى شرّ داء خالط قلباً» .

وقال قتادة رحمه الله: «إنّ الرّجل إذا كان كلّما هوى شيئاً ركبه، وكلّما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورع ولا تقوى، فقد اتّخذ إلهه هواه» .

وقال الشعبي رحمه الله: «إنّما سمّي الهوى لأنّه يهوى بصاحبه» .

وقال هشام بن عبد الملك رحمه الله:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كلّ ما فيه عليك مقال
قال بعض أهل العلم: «كن لهواك مسوّفاً، ولعقلك مسعفا (١)، وانظر
 إلى ما تسوء عاقبته فوطن (٢) نفسك على مجانبته، فإنّ ترك النّفس وما

(١) مسوفاً: ماطلاً ولا تحبّه إلى ما يريد - مسعفاً: مسرعاً إلى إجابة طلبه.

(٢) وطن نفسك: هيئها واجعلها مستعدة للبعد عما تكون نتيجته غير مستحبة.

تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها، فاصبر على الدواء كما تخاف من الدواء». .

وقال آخر: «خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه، وعصى هواه في طاعة ربه» .

وقال آخر: الهوى مطية الفتنة، والدنيا دار المحنة (١) ، فانزل عن الهوى تسلم، وأعرض عن الدنيا تغنم، ولا يغرنك هواك بطيب الملاهي، ولا تفتنك دنياك بحسن العواري (٢) ، فمدة اللهو تنقطع، وعارية الدهر ترتجع، ويبقى عليك ما تركته من المحارم وتكتسبه من المآثم .

قال بعض السلف: «شر إله عبد في الأرض الهوى» .

وقال بعضهم:

إِنِّي بُلِيتُ بِأَرْبَعٍ يَرْمِينَنِي بِالنَّبْلِ مِنْ قَوْسٍ لَهَا تَوْتِيرٌ (٣)

(١) المحنة: الابتلاء والاختبار .

(٢) العواري: جمع عارية وهو ما بيدك وليس مملوكا لك .

(٣) لها توتير: يوضع لها وتر .

إِبْلِيسُ وَالْدُّنْيَا وَنَفْسِي وَالهَوَىٰ يَا رَبَّ أَنْتَ عَلَى الْخَلَاصِ قَدِيرٌ
قال أعرابي: «الهوى هوان ولكن غلط باسمه، فأخذه الشاعر وقال:

إِنَّ الهوان هو الهوى قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا
وقال حكيم: «العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع» .

وفي بعض الحكم: من أطاع هواه، أعطى عدوه مناه.

قال بعض البلغاء: «أفضل الناس من عصى هواه، وأفضل منه من
 رفض دنياه (٢)» .

وأختم هذه الأقوال بقول العلامة ابن القيم **رحمه الله** كما في «الجواب الكافي
 لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص: ١٤٢) حيث يقول: لَمْ يَقْدِرْهُ حَقٌّ قَدَرِهِ
 مَنْ هَانَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ فَعَصَاهُ، وَهَيْئُهُ فَارْتَكَبَهُ، وَحَقُّهُ فَضَيَّعَهُ، وَذِكْرُهُ فَأَهْمَلَهُ،
 وَغَفَلَ قَلْبُهُ عَنْهُ، وَكَانَ هَوَاهُ آثَرَ عِنْدَهُ مِنْ طَلَبِ رِضَاهُ، وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقِ
 أَهَمَّ مِنْ طَاعَتِهِ، فَلِلَّهِ الْفَضْلَةُ مِنْ قَلْبِهِ وَقَوْلِهِ وَعَمَلِهِ، هَوَاهُ الْمُقَدَّمُ فِي ذَلِكَ

(١) الهوان: هو الذل.

(٢) انظر: «نصرة النعيم» (٩ / ٣٧٧٠).

لِأَنَّهُ الْمُهِمُّ عِنْدَهُ، يَسْتَخِفُّ بِنَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْهِ بِكُلِّ قَلْبِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَيَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ، وَيَخْشَى النَّاسَ وَلَا يَخْشَى اللَّهَ، وَيُعَامِلُ الْخَلْقَ بِأَفْضَلِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَإِنْ عَامَلَ اللَّهُ عَامَلَهُ بِأَهْوَنِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْقَرِهِ، وَإِنْ قَامَ فِي خِدْمَةِ مَنْ يُحِبُّهُ مِنَ الْبَشَرِ قَامَ بِالْجِدِّ وَالْإِجْتِهَادِ وَبَذَلَ النَّصِيحَةَ، وَقَدْ أَفْرَغَ لَهُ قَلْبُهُ وَجَوَارِحُهُ، وَقَدَّمَهُ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَصَالِحِهِ، حَتَّى إِذَا قَامَ فِي حَقِّ رَبِّهِ - إِنْ سَاعَدَ الْقَدَرُ - قَامَ قِيَامًا لَا يَرْضَاهُ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ، وَبَذَلَ لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا يَسْتَحْيِي أَنْ يُوَاجِهَ بِهِ مَخْلُوقًا مِثْلَهُ، فَهَلْ قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ مِنْ هَذَا وَصُفُّهُ؟ وَهَلْ قَدَرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ مَنْ شَارَكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ فِي مَخْضٍ حَقَّهُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ وَالطَّاعَةِ وَالذُّلِّ وَالْخُضُوعِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؟ اهـ.

نسأل الله التوفيق والسداد، وأن يرزقنا التزود ليوم المعاد.

للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة

قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله: إن للخلوة تأثيرات تبين في الجلوة، كم من مؤمن بالله عز وجل، يحترمه عند الخلوات، فيترك ما يشتهي حذرًا من عقابه، أو رجاء لثوابه، أو إجلالاً له، فيكون بذلك

الفعل كأنه طرح عودًا هنديًا على مجمرٍ، فيفوح طيبه، فيستنشق الخلائق، ولا يدرون أين هو؟.

وعلى قدر المجاهدة في ترك ما يهوى تقوى محبته، أو على مقدار زيادة دفع ذلك المحبوب المتروك يزيد الطيب، ويتفاوت تفاوت العود، فترى عيون الخلق تعظم هذا الشخص، وألسنتهم تمدحه، ولا يعرفون لم؟ ولا يقدرون على وصفه: لبعدهم عن حقيقة معرفته.

وقد تمتد هذه الأراييح (١) بعد الموت على قدرها؛ فمنهم من يذكر بالخير مدة مديدة ثم ينسى، ومنهم من يذكر مئة سنة، ثم يخفى ذكره وقبره، ومنهم أعلام يبقى ذكرهم أبدًا.

وعلى عكس هذا من هاب الخلق، ولم يحترم خلوته بالحق، فإنه على قدر مبارزته بالذنوب، وعلى مقادير تلك الذنوب، يفوح منه ريح الكراهة، فتمقتة القلوب: فإن قل مقدار ما جنى، قل ذكر الألسن له بالخير، وبقي

(١) الأراييح: جمع رائحة، والمقصود: الذكر الحسن.

مجرد تعظيمه. وإن كثر، كان قصارى الأمر سكوت الناس عنه، لا يمدحونه ولا يذمونهم.

ورب خال بذنب كان سبب وقوعه في هوة شقوة في عيش الدنيا والآخرة، وكأنه قيل له: ابقَ بما أثرت! فيبقى أبداً في التخييط. فانظروا إخواني إلى المعاصي أثَّرت، وعَثَّرت.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن العبد ليخلو بمعصية الله تعالى، فيلقي الله بغضه في قلوب المؤمنين من حيث لا يشعر، فتلمحوا ما سطرته، واعرفوا ما ذكرته، ولا تهملوا خلواتكم، ولا سرائركم، فإن الأعمال بالنية، والجزاء على مقدار الإخلاص (١).

وقال ابن الجوزي رحمته الله: في «صيد الخاطر» (ص: ٤٨١) ضمن نصيحة بليغة للعلماء والزهاد: يا قوم قد علمتم أن الأعمال بالنيات، وقد فهمتم قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ، وقد سمعتم عن السلف أنهم كانوا لا يعلمون، ولا يقولون حتى تتقدم النية وتصح.

(١) «صيد الخاطر» (ص: ١٨٦).

أيذهب زمانكم يا فقهاء في الجدل والصياح، وترتفع أصواتكم عند اجتماع العوام تقصدون المغالبة؟! أو ما سمعتم: «من طلب العلم لياهي به العلماء، أو ليباري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه؛ لم يرح رائحة الجنة^(١)» ثم يقدم أحدكم على الفتوى، وليس من أهلها، وقد كان السلف يتدافعونها.

ويا معشر المتزهدين! إنه يعلم السر وأخفى! أتظهرون الفقر في لباسكم، وأنتم تستوفون شهوات النفوس، وتظهرون التخاشع والبكاء في الجلوات دون الخلوات؟! كان ابن سيرين يضحك ويقهقه، فإذا خلا؛ بكى أكثر الليل، وقال سفيان لصاحبه: ما أوقحك! تصلي والناس يرونك؟!

آه للمرائي من يوم: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، وهي النيات! فأفيقوا من سكركم، وتوبوا من زللکم، واستقيموا على الجادة:

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٧٧)، والحاكم (١/ ٨٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما بنحوه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٨٢).

﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٥٦] . اهـ
بتصرف.

وقال بعض السادات **رحمته الله**: من كان الذكر في الخلوة جليسه، كان المذكور في الوحدة أنيسه .

- والذنوب لها أثر عظيم على القلوب: قال أبو الدرداء: لَيَتَّقِ أَحَدُكُمْ أَنْ تَلْعَنَهُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ، فَيَلْقِي اللَّهَ لَهُ الْبَغْضَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

- قال سليمان التيمي: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السِّرِّ فَيَصْبَحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ.

- وقال غيره: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَذْنِبُ الذَّنْبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، ثُمَّ يَجِيءُ إِلَى إِخْوَانِهِ، فَيُرُونَ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْلَةِ عَلَى وَجُودِ الْإِلَهِ الْحَقِّ الْمَجَازِي بِذَرَّاتِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَلَا يَضِيعُ عِنْدَهُ عَمَلٌ عَامِلٌ، وَلَا يَنْفَعُ مِنْ قُدْرَتِهِ حِجَابٌ وَلَا اسْتِتَارٌ.

وَقَدْ قِيلَ: مَا أَسْرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَظْهَرَهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتٍ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتٍ لِسَانِهِ.

قال ابن رجب: فالسعيد مَنْ أصلح ما بينه وبينَ الله، فَإِنَّهُ من أصلح ما بينه وبينَ الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد الناس بسخط الله، عاد حامده من النَّاس له ذاماً.

وقال أبو سليمان: الخاسرُ من أبدى للناس صالح عمله، وبارز بالقبيح من هو أقربُ إليه من جبل الوريد (١).

وقال أبو حازم سلمة بن دينار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لَا يُحْسِنُ عَبْدٌ فِيما بينه وبين الله تعالى إِلَّا أَحْسَنَ الله فيما بينه وبين العباد، وَلَا يُعَوِّرُ - يفسد - فيما بينه وبين الله تعالى إِلَّا عَوَّرَ الله فيما بينه وبين العباد، وَلُصَّانَعَةُ وَجْهِ وَاحِدٍ أَيْسَرُ مِنْ مُصَانَعَةِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا؛ إِنَّكَ إِذَا صَانَعْتَ الله مالت الوجوه كُلُّهَا إِلَيْكَ، وَإِذَا أَفْسَدْتَ ما بينَكَ وبينه شَنَأَتْكَ - أَبْغَضَتْكَ - الوجوه كُلُّهَا .

(١) «دروس تربوية من الأحاديث النبوية» (ص: ١٩).

قال ابن الجوزي رحمه الله: نظرت في الأدلة على الحق - سبحانه وتعالى - فوجدتها أكثر من الرمل، ورأيت من أعجبها: أن الإنسان قد يخفي ما لا يرضاه الله عز وجل فيظهره الله - سبحانه - عليه ولو بعد حين، وينطق الألسنة به، وإن لم يشاهده الناس. وربما أوقع صاحبه في آفة يفضحه بها بين الخلق؛ فيكون جواباً لكل ما أخفى من الذنوب، وذلك؛ ليعلم الناس أن هنالك من يجازي على الزلل، ولا ينفع من قدره وقدرته حجاب ولا استتار، ولا يضاع لديه عمل.

وكذلك يخفي الإنسان الطاعة، فتظهر عليه، ويتحدث الناس بها، وبأكثر منها، حتى إنهم لا يعرفون له ذنباً، ولا يذكرونه إلا بالمحاسن؛ لِيُعْلَمَ أن هنالك ربّاً لا يُضِيع عَمَلَ عامل.

وإن قلوب الناس لتعرفُ حال الشخص، وتجه، أو تأباه، وتذمه، أو تمدحه وفق ما يتحقق بينه وبين الله - تعالى - فإنه يكفيه كلُّ همٍّ، ويدفع عنه كل شر.

وما أصلح عبد ما بينه وبين الخلق دون أن ينظر إلى الحق إلا انعكس مقصوده، وعاد حامده ذاماً .

وقال ابن الجوزي رحمه الله: إنه بقدر إجلالكم لله عز وجل يجلكم، وبمقدار تعظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحرمتكم.

ولقد رأيت -والله- من أنفق عمره في العلم إلى أن كبرت سنُّه، ثم تعدى الحدود، فهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليه مع غزارة علمه، وقوة مجاهدته.

ولقد رأيت من كان يراقب الله في صبوته - مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم - فعَظَّم الله قدره في القلوب، حتى عَلِقَتْهُ، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير.

ورأيت من كان يرى الاستقامة إذا استقام، وإذا زاغ مال عنه اللطف.

ولولا عموم الستر، وشمول رحمة الكريم لافتضح هؤلاء المذكورون، غير أنه في الأغلب تأديب، أو تُلطف في العقاب .

وقال ﷻ: ورأيت أقوامًا من المنتسبين إلى العلم، أهملوا نظر الحق - عز وجل - إليهم في الخلوات، فمحا محاسن ذكرهم في الجلوات (١)، فكانوا موجودين الكمعدومين، لا حلاوة لرؤيتهم، ولا قلب يحن إلى لقاءهم.

فَاللَّهُ اللَّهُ فِي مراقبة الحق عز وجل؛ فَإِنْ ميزان عدله تبين فيه الذرة، وجزاؤه مراصد للمخطئ، ولو بعد حين، وربما ظن أنه العفو، وإنما هو إمهال، وللذنوب عواقب سيئة.

فَاللَّهُ اللَّهُ! الخلوات، الخلوات! البواطن البواطن! النيات النيات، فَإِنْ عليكم من الله عينًا ناظرة! وإياكم والاغترار بحلمه وكرمه، فكم استدرج! وكونوا على مراقبة الخطايا، مجتهدين في محوها! وما شيء ينفع كالتضرع مع الحمية عن الخطايا، فلعله (٢). وهذا فصل إذا تأمله المعامل لله تعالى نفعه.

(١) الجلوات: عكس الخلوات.

(٢) فلعله: أي فلعله ينفع.

ولقد قال بعض المراقبين لله تعالى: قدرت على لذة وليست بكبيرة، فنازعني نفسي إليها، اعتمادًا على صغرها، وعظم فضل الله تعالى وكرمه، فقلت لنفسي: إن غلبت هذه، فأنت أنت، وإذا أتيت هذه، فمن أنت؟! وذكرتها حالة أقوام كانوا يفسحون لأنفسهم في مساححة، كيف انطوت أذكارهم، وتمكنت عقوبة الإعراض عنهم منهم، فارعوت (١) ورجعت عما هممت به، والله الموفق (٢) .

وقال ابن الجوزي رحمه الله: الحذر الحذر من المعاصي فإنها سيئة العواقب ، والحذر الحذر من الذنوب خصوصًا ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه ولا ينال لذة المعاصي إلا دائم الغفلة.

(١) أي: انزجرت، واتعظت.

(٢) «صيد الخاطر» (ص: ١٤٨).

فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بها ، لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علمه بتحريمها وحذره من عقوبتها ، فإن قويت معرفته رأى بعين عمله قرب الناهي وهو الله .

تَوَارَى بِحِذْرَانِ الْبُيُوتِ عَنِ الْوَرَى وَأَنْتَ بَعَيْنِ اللَّهِ لَا شَكَّ تَنْظُرُ
فيتنغص عيشه في حال التذاذه فإن غلبه سكر الهوى كان القلب متنغصاً بهذه المراقبات وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة ثم خزي دائم وندم ملازم وبكاء متواصل وأسف على ما كان مع طول الزمان ، حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذار العتاب فأفٍ للذنوب ما أقبح آثارها وأساء أخبارها . انتهى كلامه **وَاللَّهُ** (١).

كيف يتخلص الإنسان من ذنوب الخلوات

يتخلص الإنسان من ذنوب الخلوات، بأمور كثيرة فمن ذلك:

١ - الالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء ، والتضرع إليه، أن يصرف عنه

الذنوب والمعاصي، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ

(١) «موارد الظمان لدروس الزمان» (٥ / ١٦٤).

أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا فَلَيْسَتْ جِيبُوا إِلَيَّ وَلِيُؤْمِنُوا إِلَيَّ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ
 ﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

٢- مجاهدة النفس، ودفع وسوستها، ومحاولة تركيتها بطاعة الله، قَالَ
 تَعَالَى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا
 ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ [الشمس: ٧ - ١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

٣- تأمل الوعيد الشديد الوارد في حديث ثَوْبَانَ السابق ذكره، وخشية
 انطباقه على فاعل تلك الذنوب في خلواته.

٤- استشعار مراقبة الله تعالى، وأنه رقيب، ومطلع على المسلم في كل
 حال.

قال ابن كثير رحمه الله: وقد ذكر عن الإمام أحمد رحمه الله أنه كان ينشد
 هذين البيتين، إما له، أو لغيره:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا قُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً وَلَا أَنْ مَا يُخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ
٥- أن يتخيل المسلم من يجلبهم، ويحترمهم، ينظرون إليه وهو يفعل ذلك الذنب!

ويستشعر استحياءه من الله أكثر من استحيائه من الخلق ، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «واستحي من الله استحياءك رجلاً مِنْ أَهْلِكَ» صححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (٣٥٥٩) ، وعزاه للبزار، والمروزي في «الإيمان».

٦- تذكر الموت لو أنه جاءه وهو في حال فعل المعصية، وارتكاب الذنب ، فكيف يقابل ربه وهو في تلك الحال؟! .

٧- تذكر ما أعده الله لعباده الصالحين من جنة عرضها السموات والأرض ، والتفكر في عذاب الله تعالى، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيْ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠] . (١)

(١) «موقع الإسلام سؤال وجواب» (٧ / ١٧).

ونسأل الله أن يحفظنا والمسلمين من الذنوب والمعاصي، وأن يعيننا على أنفسنا، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

دعوة إلى التوبة

إن المسلم في هذه الدنيا معرض للوقوع في الذنب، والمعصية، والواجب عليه إن وقع فيهما - أن يسارع إلى التوبة، والاستغفار، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعمَلْ سُوْءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ

مَتَابًا ﴿٧١﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

والله تعالى يفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه، كما جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَاَنْفَلَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيْسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيَّنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ» رواه البخاري (٥٩٥٠) ومسلم (٢٧٤٧) - واللفظ له -.

والواجب على العبد أن يسارع إلى التوبة، والاستغفار، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْنَا لَنَا نُورَنَا وَءَافَقْنَا ۖ﴾ [التحریم: ٨]

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

﴿٣١﴾ [النور: ٣١] فعجل أيها العبد بالتوبة وبادر بالإجابة قبل فوات الأوان ، فإلى متى أيها الغافل والغافلة: إلى متى هذه الغفلة والتواني .. والتسويق .. وترك العمل .. راقبوا الله في الخلوات ولا يغرنكم طول الأمل!

أَمَّا أَنْ الرَّجُوعُ إِلَى الصَّفُوحِ
تُبَادِرُهُ بِقُبْحِ الْفِعْلِ سِرًّا
هَذَاكَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
وَفِي دُنْيَاكَ تُؤْثِرُ كُلَّ فَنٍ
عَنْ الزَّلَّاتِ وَالْفِعْلِ الْقَبِيحِ
وَلَا تَحْشَاهُ بِالْقَوْلِ الصَّرِيحِ
وَأَنْتَ ضَلَلْتَ عَنْ هَذَا الصَّحِيحِ
عَنِ الْبَاقِي الْمَعَزَّزِ وَالْمَلِيحِ
نسأل الله أن يتوب علينا وأن يغفر ذنوبنا إنه هو الغفور الرحيم

شروط التوبة

التوبة إلى الله - تعالى - من أعظم الحسنات؛ لأنها تزيل العوائق التي تقوم بين العبد وبين ربه: تلك العوائق الكامنة في النفس من شهواتها ونزواتها؛ فالتوبة تملأ النفس بالأمل، وتقود القلب إلى مصدر النور.

ولن تكون التوبة صحيحة مقبولة حتى تتحقق فيها شروط تثبت صدق التائب في توبته.

ومن هذه الشروط:

أولاً: أن تكون خالصة لله تعالى لأن الله - سبحانه - لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً له وحده مبتغى به وجهه، وموافقاً أمره باتباع رسوله ﷺ؛ فلا بد أن يكون العمل خالصاً إلى الله - تعالى - صواباً؛ أي موافقاً للسنة؛ إذ قد يكون العمل صواباً ولا يكون خالصاً، فلا يقبل، وقد يكون خالصاً ولا يكون صواباً فلا يقبل - أيضاً - وكان من دعاء عمر رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً».

فيكون الباعث للتوبة حُبُّ الله وتعظيمه ورجاؤه، والطمع في ثوابه، والخوف من عقابه، لا تزلماً إلى مخلوق، ولا قصداً في عرض من عرض الدنيا الزائل.

ثانيًا: الإقلاع عن المعصية: لأن النفس المشغولة بلذة المعصية قلما تُخلص عمل الخير؛ فيجاهد التائب نفسه لاقتلاع جذور الشر من قلبه، حتى يصبح نقيًا خالصًا صافيًا، تصدر عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله؛ فإن كانت المعصية بفعل محرم تركه في الحال، وإن كانت بترك واجب فعله في الحال إن كان مما يمكن قضاؤه، وإن كانت مما يتعلق بحقوق الخلق تخلص منها وأداها إلى أهلها أو استحلبهم منها.

ثالثًا: الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال والعزم على ألا يعاود الذنب في المستقبل، فلن تكون التوبة صحيحة حتى يكون نادمًا آسفًا حزينًا على ما بدر منه من المعاصي، ندمًا يوجب الانكسار بين يدي الله - عز وجل - والإنابة إليه؛ ومن هنا فلا يُعَدُّ تائبًا ونادمًا ذلك الذي يتحدث بمعاصيه السابقة التي قارفها يفتخر بذلك ويتباهى به؛

بل هذا من المجاهرة التي قال عنها رسول الله ﷺ : « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ (١) ».

رابعاً: العزم الجازم على عدم معاودة الذنب: فيتوب من الذنب وهو يُحَدِّث نفسه ألا يعود في المستقبل، والقصد لتدارك ما فات وإصلاح ما يأتى، ودوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت، والعزم الجازم - أيضاً - على فعل المأمور، وترك المحذور، والتزام ذلك طيلة حياته.

وإذا وصل العبد إلى هذه الدرجة من العزم الجازم فلا يضر توبته لله مرة أخرى إن ندم وأسف وسارع إلى التوبة؛ قال ﷺ : «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ يَغْفِرُ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيُّ رَبِّ يَغْفِرُ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ

(١) رواه البخاري (٦٠٦٩) ومسلم (٢٩٩٠). والمجاهرون: هم الذين جاهروا بمعاصيهم

وأظهروها وكشفوا ما ستر الله عليهم فيتحدثون بها لغير ضرورة ولا حاجة. انظر: «شرح

صحيح مسلم» للنووي.

وتعالى: أذنّب عبدي فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئت فقد غفرت لك^(١)». ومعنى قوله: فقد غفرت لك. أي ما دمت تذنّب ثم تتوب، غفرت لك.

خامسًا: عدم الإصرار على المعصية: والإصرار: هو عقد القلب على شهوة الذنب، والاستقرار على المخالفة، والعزم على المعاودة؛ لأن التوبة مع الإصرار توبة الكذابين الذين يهجرون الذنوب هجرًا مؤقتًا، يتحينون فيها الفرص المواتية لمعاودة الذنب، وقد بقيت حلاوته في قلوبهم، يتمنون مقارفته ما وجدوا السبيل إليه، وقد شرط الله لوجوب المغفرة ودخول الجنة عدم الإصرار على فعل الفاحشة أو ظلم النفس؛

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَكُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٢٥) أُولَئِكَ جَزَاءُكُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ

(١) رواه «البخاري» (٧٥٠٧) و«مسلم» (٢٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تَحْتَهَا الْأَنْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا وَنَعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٣٦﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

سادساً: أن التوبة كما تكون بالقلب واللسان تكون أيضاً بالعمل الصالح الذي يكون ترجمة عملية لما في قلب الإنسان؛ إذ العمل الصالح ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية؛ فيعوض التائب ما صرفه من عمره في اللهو والمعصية بالعمل الصالح وفعل الطاعات؛ ليمحق بذلك أثر الخطيئة والسيئات، فإذا تاب وأقلع عن الذنب فينبغي أن يصدق توبته تعويض ما فاته بأعمال صالحة؛ لكي يرجى فلاحه، فليؤد التائب الفرائض وجميع شعب الإيمان البضع والسبعين قدر المستطاع.

سابعاً: أن يستمر التائب في توبته ولا يأتي بما ينقضها ويخالفها؛ إذ الاستمرار في التوبة شرط في صحة كمالها ونفعها.

ثامناً: من شروط التوبة أن تصدر في زمن قبولها؛ وهو ما قبل حضور الأجل، وطلوع الشمس من مغربها^(١).

إشكال وجوابه

وهنا إشكال أحببنا ذكره تكميلاً للفائدة ، وتكميلاً للموضوع ورفعاً للإشكال عن كثير من الناس ، فإلى الإشكال والجواب ، والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

الإشكال : كيف نستطيع الجمع بين الحديثين الشريفين: حديث «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ» وحديث «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ»

الجواب: أولاً: نذكر نص الحديثين الذين وقع فيهما الإشكال:

أ. عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

(١) انظر: «التوبة إلى الله» (ص: ٢٥) للشيخ صالح السدلان.

هَبَاءٌ مَثُورًا^(١) قَالَ ثَوْبَانٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا^(٢)». رواه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في « صحيح ابن ماجه ».

ب. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاقٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ: يَا فَلَانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ». رواه البخاري (٥٧٢١) ومسلم (٢٩٩٠).

ثانيًا: قد استشكل كثير من الناس الجمع بين هذين الحديثين، وتعددت أماكن سؤالهم عن ذلك الجمع، ونذكر ما تيسر من أوجه الجمع بينهما، سائلين الله تعالى التوفيق، فنقول: إن الذي دعا إلى استشكل الحديثين

(١) الهباء في الأصل: الشيء المُنْبُث الذي تراه في ضَوْءِ الشمس.

(٢) محارم الله: هي كل ما حرّمه الله تعالى من المعاصي، الصغائر، والكبائر.

هو ما حواه معناهما مما ظاهره التعارض، فإن الحديث الأول ليس فيه أن أصحاب المعاصي قد جاهرُوا بمعاصيهم، وبمقتضى الحديث الثاني فهم «معافون»، فكيف تحبط أعمالهم، ويتوعدون بالسخط والعذاب؟! ومن هنا جاء الإشكال في ظاهر الحديثين، فذهب العلماء في الجمع بينهما مذاهب شتى، ومن ذلك:

١. القول بتضعيف حديث ثوبان، وقد علّله بعضهم فضّعف سنده بالراوي "عقبة بن علقمة المعافري"، وحكم على متنه بالنكارة.

أ. ويرد على تضعيف سنده: بأن الراوي عقبة بن علقمة وثقه كثيرون، ومن وثقه: ابن معين، والنسائي، ومن حكم على رواياته بالرد فإنما هو إذا روى عنه ابنه "محمد"، أو روى هو عن "الأوزاعي"، وهذا قول الأئمة المحققين في حاله، وليست روايته في هذا الحديث عن الأوزاعي، ولا رواه عنه ابنه محمد، فالسند حسن على أقل أحواله.

ب. ويرد على نكارة متنه بأن له نظائر معروفة، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨]. وهو وإن لم يكن فيه حبوط أعمال أولئك بلفظ الآية، إلا أنه يُعرف ذلك بمعناها.

قال ابن كثير رحمه الله: هَذَا إِنْكَارٌ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي كَوْنِهِمْ يَسْتَخْفُونَ بِقَبَائِحِهِمْ مِنَ النَّاسِ لِئَلَّا يُنْكَرُوا عَلَيْهِمْ، وَيُجَاهِرُونَ اللَّهَ بِهَا لِأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى سَرَائِرِهِمْ وَعَالَمٌ بِمَا فِي صَمَائِرِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨] تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَوَعِيدٌ^(١).

٢. أن حديث ثوبان في المنافقين، وحديث أبي هريرة في المسلمين، فلا تعارض بينهما، لا سيما إذا حملنا النفاق هنا على النفاق العملي الذي لا ينافي أخوة الإيمان.

(١) تفسير ابن كثير عند الآية الكريمة.

والواقع أن المتأمل في حال بعض من يقع في المنكرات هذه الأيام من أهل الخير والصلاح الظاهر، وباعتراف من يتوب منهم يجد عجباً، من ارتكاب ذنوب " الخلوات " بشكل يمكن إطلاق وصف " انتهاك " عليه! فمن هؤلاء من تكون خلواته في مشاهدة الفضائيات الفاسدة، والنظر في الإنترنت إلى مواقع الجنس الفاضح، واستعمال أسماء مستعارة للمحادثة والمراسلة مع الأجنبيةات، ثم تجد هؤلاء لهم نصيب في الظاهر من الاستقامة، في اللباس، والصلاة، والصيام، ومن هنا كان هذا الحديث محذراً لهؤلاء أن يكون حالهم حال المنافقين، أو أن يكونوا أعداء لإبليس في الظاهر، أصدقاء له في السر، كما قال بعض السلف.

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله في كتابه «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢) / (٧٦٤) : **الْكَبِيرَةُ السَّادِسَةُ وَالْخُمْسُونَ بَعْدَ الثَّلَاثِيَةِ** : **إِظْهَارُ زِيِّ الصَّالِحِينَ فِي الْمَلَأِ وَانْتِهَاكُ الْمُحَارِمِ وَلَوْ صَغَائِرٍ فِي الْخُلُوةِ** . أَخْرَجَ ابْنُ مَاجَهَ بِسَنَدٍ رَوَاهُ ثِقَاتٌ عَنْ ثَوْبَانَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** عَنِ النَّبِيِّ **ﷺ** أَنَّهُ قَالَ : «

لَا عَلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَعْمَالٍ أَمْثَالِ جِبَالٍ تِهَامَةٍ بَيْضَاءَ فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ هَبَاءً مَثُورًا ...»

لَأنَّ مَنْ كَانَ دَأْبُهُ إِظْهَارَ الْحَسَنِ وَإِسْرَارَ الْقَبِيحِ يَعْظُمُ ضَرَرُهُ وَإِغْوَاؤُهُ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنِحَالِ رِبْقَةِ التَّقْوَى وَالْخَوْفِ مِنْ عُنُقِهِ . اهـ باختصار

٣. قوله **ﷺ** : « إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ » لا يقتضي خلوتهم في بيوتهم وحدهم ! بل قد يكونون مع جماعتهم، ومن على شاكلتهم، فالحديث فيه بيان خلوتهم بالمحارم، لا خلوتهم مع أنفسهم في بيوتهم، فليس هؤلاء بمعافين، والمعافى الذي في حديث أبي هريرة الذي يظهر لنا أنه يفعل المعصية الغالبة عليه وحده، ولذا جاء في الحديث أنه شخص بعين، وأن ربّه قد ستره، «يَعْمَلُ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ»، وحديث ثوبان فيه الجمع «قوم» و «خلوا» .

قال الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله: الذي يبدو أن «خلوا بمحارم الله» ليس معناها «سرّاً»، وإنما: إذا سنحت لهم الفرصة انتهكوا المحارم،

ف « خلّوا » ليس معناها « سرّاً »، وإنما من باب (خلا لك الجو فيضي واصفري) (١).

٤. وصف هؤلاء المذكورين في حديث ثوبان بأنهم «يتتهكون» محارم الله، وهو وصف يدل على استحلالهم لذلك، أو مبالغتهم فيها في هذه الحال، وأمنهم من مكر الله، وعقوبته، وعدم مبالاتهم باطلاعه عليهم. فلذا استحقوا العقوبة بحبوط أعمالهم، وليس الوعيد على مجرد الفعل لتلك المعصية، ولعله لذلك سأل ثوبان **رضي الله عنه** النبي **ﷺ** أن يجليّ حال أولئك، وأن يصفهم؛ خشية أن يكونوا منهم، وهم لا يدرون، ومثل هذا إنما هو طلب لمعرفة حال قلوب أولئك العصاة، وليس لمعرفة أفعالهم مجردة (٢). اهـ المراد، والله تعالى أعلم.

(١) «سلسلة الهدى والنور» شريط رقم (٢٢٦).

(٢) موقع الإسلام سؤال وجواب (٤ / ٣١٧).

موعظة

إن للمواعظ تأثيراً بليغاً في القلوب ، وموقعاً عظيماً في النفوس ، ولذا فإننا بحاجة ماسة للموعظة الحسنة ، التي تلين لها قلوب المخبتين ، وترقق لها أفئدة الخاشعين ، وتنشع بها غيوم الغفلة عن الغافلين ، وترتفع بها سَوَاتِرِ الحُجُبِ عن اللاهين واللاعبيين ، ولا ريب أن الوعظ عمل جليل ، وله في الشرع مقام رفيع ، وإنَّ العمل بالموعظة خيرٌ وثباتٌ وأجرٌ وهداية ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ

تَثْبِيثًا ۖ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾ (١٧) وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا

مُسْتَقِيمًا ۖ ﴾ (١٨) [النساء: ٦٦-٦٨] . ومن عظات العلماء ما جاء في تذكرة

الإمام القرطبي رحمته الله : تفكر يا مغرور في الموت وسكرته ، وصعوبة

كأسه ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ،

كفى بالموت مفزعاً للقلوب ، ومبكياً للعيون ، ومفرقاً للجماعات ،

وهادماً للذات ، وقاطعاً للأمنيات ، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم

مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، إذا نقلت من سعة إلى ضيق ،

وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من

فراشك وغطائك إلى غرر، وغطوك من بعد لين لحافها بتراب ومدر، فيا جامع المال، والمجتهد في البنيان، ليس لك من مالك والله إلا الأكفان، بل هي للخراب والذهاب، وجسمك للترائب والمئاب، فأين الذي جمعته من المال؟ فهل أنقذك من الأهوال؟ كلا بل تركته لمن لا يحمذك، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرک .

ونقل القرطبي رحمه الله عن يزيد الرقاشي أنه كان يقول لنفسه: ويحك يا يزيد من ذا يصلي عنك بعد الموت؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت؟ من ذا يرضي عنك ربك بعد الموت؟ . ثم يقول: يا أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ من الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟ .

وقال القرطبي رحمه الله في «التذكرة»: مثَّل نفسك يا مغرور وقد حلت بك السكرات، ونزل بك الأنين والغمرات، فمن قائل يقول: إن فلاناً قد أوصى، وماله قد أحصى، ومن قائل يقول: إن فلاناً ثقل لسانه، فلا

يعرف جيرانه، ولا يكلم إخوانه، فكأنني أنظر إليك تسمع الخطاب، ولا تقدر على رد الجواب، ثم تبكي ابنتك وهي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: حبيبي أبي من ليتمي من بعدك؟ ومن لحاجتي؟ وأنت والله تسمع الكلام ولا تقدر على رد الجواب **وأنشدوا:**

وأقبلت الصغرى تمرغ خدها على وجتي حيناً وحيناً على صدري
وتحشم خديها وتبكي بحرقة تنادي: أبي إني غلبت على الصبر
حبيبي أبي من اليتامى تركتهم كأفراخ زغب في بعيد من الوكر؟
فخيل لنفسك يا ابن آدم إذا أخذت من فراشك، إلى لوح مغتسلك
فغسلك الغاسل، وألبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران،
وبكت عليك الأصحاب والإخوان، وقال الغاسل أين زوجة فلان
تحالله؟ وأين اليتامى ترككم أبوكم فما ترونه بعد هذا اليوم أبداً؟
وأنشدوا:

ألا أيها المغرور مالك تلعب تؤمل آمالاً وموتك أقرب
وتعلم أن الحرص بحر مبعد سفيته الدنيا فيأك تعطب
وتعلم أن الموت ينقض مسرعاً عليك يقيناً طعمه ليس يعذب
كأنك توصي واليتامى تراهم وأهمهم الثكلى تنوح وتندب

تغص بحزن ثم تلطم وجهها يراها رجال بعدما هي تحجب
وأقبل بالأكفان نحوك قاصد ويحني عليك الترب والعين تسكب
ومن عظات الصحابي الجليل أبي الدرداء **رضي الله عنه** قوله: أضحكني
ثلاث، وأبكاني ثلاث، أضحكني مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل
ليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه، وهو لا يدري أأرضى الله أم
أسخطه؟! . وأبكاني فراق الأحبة محمد **صلوات الله وسلامه عليه** وحزبه، وهول المطلع عند
غمرات الموت، والوقوف بين يدي الله، يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا
يدري إلى الجنة أو إلى النار .

وقال القرطبي في «تذكرته» واعظاً ناصحاً: يا هذا، أين الذي جمعته من
الأموال، وأعددته للشدائد والأهوال، لقد أصبحت كفك منه عند
الموت خالية صفراً، وبدلت بعد غناك وعزك ذلاً وفقراً، فكيف
أصبحت يا رهين أوزاره، ويا من سلب من أهله ودياره؟ ما كان أخفى
عليك سبيل الرشاد، وأقل اهتمامك لحمل الزاد إلى سفرك البعيد،

وموقفك الصعب الشديد، أو ما علمت يا مغرور أن لا بدَّ من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال، وليس ينفعك ثمَّ قليل ولا قال، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان ومشت القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك الله فإلى الجنة، وإن كانت الأخرى فإلى النيران، يا غافلاً عن هذه الأحوال إلى كم هذه الغفلة والتوان؟ أتحسب أن الأمر صغير، وتزعم أن الخطب يسير؟ وتظن أن سينفعك حالك إذا آن ارتحالك، أو ينقذك مالك حين توبقك أعمالك، أو يغني عنك ندمك إذا زلت بك قدمك، أو يعطف عليك معشرك حين يضمك محشرك، كلا والله ساء ما تتوهم، ولا بدَّ أن ستعلم لا بالكفاف تقنع، ولا من الحرام تشبع، ولا للعضات تسمع، ولا بالوعيد ترتدع، دأبك أن تتقلب مع الأهواء، وتخبط خبط العشواء، يعجبك التكاثر بما لديك، ولا تذكر ما بين يديك. يا نائماً في غفلة، وفي خبطة يقظان، إلى كم هذه الغفلة والتوان، أتزعم أن ستترك سُدى، وأن لا تحاسب غداً، أم تحسب أن الموت يقبل الرُّشا؟ أم تميز بين الأسد

والرَّشَا (١) ؟ كلا والله، لن يدفع عنك الموت مالك ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى، وحقق ما ادعى، ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، فانتبه من هذه الرقدة، واجعل العمل الصالح لك عدة، ولا تتمنّ منازل الأبرار وأنت مقيم على الأوزار، عامل بعمل الفجار، وراقب الله في الخلوات، ولا يغرنك الأمل، فتزهد عن العمل...، **وأنشدوا:**

تزود من معاشك للمعاد وقم لله واعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد؟
ألا مُتَيْقِظٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، أَلَا مُتَأَهِّبٌ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ ، أَلَا عَامِرٌ لِلْقَبْرِ قَبْلَ
الْوُصُولِ إِلَيْهِ .

تَسْمَعُ فَإِنَّ الْمَوْتَ يُنْذِرُ بِالصَّوْتِ وَبَادِرُ بِسَاعَاتِ التَّقَى سَاعَةَ الْمَوْتِ
وَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ مَيِّتٌ فَإِنَّكَ تَدْرِي أَنَّ لَا بُدَّ مِنْ مَوْتٍ

(١) الرُّشَا بِالضَّمِّ بَذُلُ الْمَالِ لِلْحَاكِمِ . وَالرَّشَا بِالْفَتْحِ الْغَرَالُ .

إِخْوَانِي: إِنَّمَا الْعُمْرُ مَرَّاحِلٌ ، وَكَأَنَّ قَدْ بَلَغْتَ سَفِينَةَ الرَّاحِلِ .

دَخَلُوا عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُونَهُ فَقَالُوا: كَمْ أَتَى عَلَيْكَ؟ فَقَالَ: خَمْسُونَ وَمِائَةً سَنَةً. فَقَالُوا: عُمَرُ وَاللَّهِ. فَقَالَ: لَا تَقُولُوا ذَلِكَ فَوَاللَّهِ لَوْ اسْتَكْمَلْتُمُوهَا لَا اسْتَقْلَلْتُمُوهَا.

إِخْوَانِي: مَنْ أَخْطَأَتْهُ سِهَامُ الْمُنِيَّةِ قَيْدَهُ عِقَالُ الْهَرَمِ ، إِنَّ لِكُلِّ سَفَرٍ زَادًا فَتَزَوَّدُوا لِسَفَرِكُمْ التَّقْوَى ، وَكُونُوا كَمَنْ عَايَنَ مَا أُعِدَّ لَهُ وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ ، وَاللَّهِ مَا بُسِطَ أَمَلٌ مَنْ لَا يَدْرِي: أَيُّصَبِحُ إِذَا أَمْسَى أَوْ يُمْسِي إِذَا أَصْبَحَ.

لَا تَحْسَبَنَّ الزَّمَانَ يُنْسِيكَ أَلَّا
يُعْطِيكَ يَوْمًا فَيَقْتَضِيكَ غَدًا
يسرق الشيءَ مِنْ قَوَاكِ وَإِنْ
حَالًا فَحَالًا حَتَّى يُرِيدِكَ بِأَلٍ
إِخْوَانِي: إِنَّ الْعِبَرَ قَدْ وَضَحَتْ ، وَإِنَّ النُّذُرَ قَدْ نَصَحَتْ ، وَإِنَّ الْمَوَاعِظَ قَدْ
أَفْصَحَتْ ، وَلَكِنَّ النَّفُوسَ مِنْ سُكْرِهَا مَا صَحَّتْ (١).

إِخْوَانِي: إِنَّكُمْ فِي دَارٍ هِيَ مَحَلُّ الْعِبَرِ وَالْآفَاتِ، وَأَنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ، وَالطَّرِيقُ كَثِيرَةُ الْمُخَافَاتِ، فَتَزَوَّدُوا مِنْ دُنْيَاكُمْ قَبْلَ الْمَمَاتِ، وَتَدَارَكُوا هَفَوَاتِكُمْ قَبْلَ الْفَوَاتِ، وَحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ وَرَاقِبُوا اللَّهَ فِي الْخَلَوَاتِ، وَتَفَكَّرُوا فِيمَا أَرَاكُمْ مِنَ الْآيَاتِ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ، وَاسْتَكْثِرُوا فِي أَعْمَارِكُمُ الْقَصِيرَةِ مِنَ الْحَسَنَاتِ، قَبْلَ أَنْ يُنَادِيَ بِكُمْ مُنَادِ الشَّتَاتِ، قَبْلَ أَنْ يُفَاجِئَكُمْ هَادِمُ اللَّذَاتِ، قَبْلَ أَنْ يَتَصَاعَدَ مِنْكُمْ الْأَيْنُ وَالزَّرْفَاتِ، قَبْلَ أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبُكُمْ عِنْدَ فِرَاقِكُمْ حَسَرَاتٍ، قَبْلَ أَنْ يَغْشَاكُمْ مِنْ غَمِّ الْمَوْتِ الْغَمَرَاتُ، قَبْلَ أَنْ تُرْعَجُوا مِنَ الْقُصُورِ إِلَى بُطُونِ الْفَلَوَاتِ، قَبْلَ أَنْ يُجَالَ بَيْنَكُمْ وَيَبْنَ مَا تَشْتَهُونَ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ، قَبْلَ أَنْ تَتَمَنَّوْا رُجُوعَكُمْ إِلَى الدُّنْيَا وَهِيَئَاتَ:

| | |
|---|---|
| أَيَا لَا هِيَا فِي عَمْرَةِ الْجَهْلِ وَالْهَوَى | صَرِيحًا عَلَى فُرْشِ الرَّدَى يَتَقَلَّبُ |
| تَأْمَلْ هَذَاكَ اللَّهُ مَآثِمَ وَأَنْتَبِهْ | فَهَذَا شَرَابُ الْقَوْمِ حَقًّا يَرْكَبُ |
| وَتَرْكِيئُهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِنْ تَفَتْ | فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْمُنِيَّةِ مَطْلَبُ |
| فَيَا عَجَبًا مِنْ مُعْرِضٍ عَنْ حَيَاتِهِ | وَعَنْ حَظِّهِ الْعَالِي وَيَلْهُو وَيَلْعَبُ |
| وَلَوْ عَلِمَ الْمَحْرُومُ أَيَّ بِضَاعَةٍ | أَضَاعَ لِأَمْسَى قَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ |

فَإِنْ كَانَ لَا يَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ
بَلَى سَوْفَ يَدْرِي حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا
وَتَعْجَبُ مِمَّنْ بَاعَ شَيْئًا بِدُونِ مَا
لَأَنَّكَ قَدْ بَعْتَ الْحَيَاةَ وَطَيِّبَهَا
فَهَلَا عَكَسْتَ الْأَمْرَ إِنْ كُنْتَ حَازِمًا
تَصُدُّ وَتَنَازِلُ عَنْ حَبِيبِكَ دَائِمًا
سَتَعْلَمُ يَوْمَ الْحَشْرِ أَيَّ تِجَارَةٍ
وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» بِسَنَدِهِ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ شِيعَ جَنَازَةً،
فَلَمَّا انْصَرَفُوا تَأَخَّرَ عُمَرُ وَأَصْحَابُهُ نَاحِيَةً عَنِ الْجَنَازَةِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ:
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، جَنَازَةٌ أَنْتَ وَلِيِّهَا تَأَخَّرْتَ عَنْهَا فَتَرَكْتَهَا وَتَرَكْتَنَا؟ فَقَالَ:
نَعَمْ، نَادَانِي الْقَبْرُ مِنْ خَلْفِي، يَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَلَا تَسْأَلُنِي مَا صَنَعْتُ
بِالْأَحَبَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: خَرَقْتُ الْأَكْفَانَ، وَمَزَّقْتُ الْأَبْدَانَ، وَمَصَصْتُ
الدَّمَ، وَأَكَلْتُ اللَّحْمَ، أَلَا تَسْأَلُنِي مَا صَنَعْتُ بِالْأَوْصَالِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ:
نَزَعْتُ الْكَفَّيْنِ مِنَ الذَّرَاعَيْنِ، وَالذَّرَاعَيْنِ مِنَ الْعُضْدَيْنِ، وَالْعُضْدَيْنِ مِنَ
الْكَتِفَيْنِ، وَالْوَرَكَيْنِ مِنَ الْفَخْذَيْنِ، وَالْفَخْذَيْنِ مِنَ الرُّكْبَتَيْنِ، وَالرُّكْبَتَيْنِ

مِنَ السَّاقِينَ، وَالسَّاقِينَ مِنَ الْقَدَمَيْنِ، ثُمَّ بَكَى عُمَرُ، فَقَالَ: أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا
بَقَاؤُهَا قَلِيلٌ، وَعَزِيزُهَا ذَلِيلٌ، وَغَنِيَّتُهَا فَقِيرٌ، وَشَبَابُهَا يَهُرُمُ، وَحَيَّتُهَا
يَمُوتُ، فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ إِقْبَالُهَا مَعَ مَعْرِفَتِكُمْ بِسُرْعَةِ إِدْبَارِهَا، وَالْمَغْرُورُ مَنِ
اغْتَرَّ بِهَا، أَيْنَ سُكَّانُهَا الَّذِينَ بَنَوْا مَدَائِنَهَا، وَشَقَّقُوا أَنْهَارَهَا، وَغَرَسُوا
أَشْجَارَهَا، وَأَقَامُوا فِيهَا أَيَّامًا يَسِيرَةً، غَرَّتْهُمْ بِصِحَّتِهِمْ، وَغُرُوا بِنَشَاطِهِمْ،
فَرَكِبُوا الْمَعَاصِي، إِيَّاهُمْ كَانُوا وَاللَّهِ فِي الدُّنْيَا مَغْبُوطِينَ بِالْأَمْوَالِ عَلَى كَثْرَةِ
الْمُنْعِ عَلَيْهِ، مُحْشُودِينَ عَلَى جَمْعِهِ، مَا صَنَعَ التُّرَابُ بِأَبْدَانِهِمْ، وَالرَّمْلُ
بِأَجْسَادِهِمْ، وَالْدِّيدَانُ بِعِظَامِهِمْ وَأَوْصَالِهِمْ، كَانُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى أَسْرَةٍ
مُمَهَّدَةٍ، وَفُرْشٍ مُنْصَدَّةٍ، بَيْنَ خَدَمٍ يَخْدُمُونَ، وَأَهْلِ يُكْرِمُونَ، وَجِيرَانٍ
يَعْضُدُونَ، فَإِذَا مَرَرْتَ فَنادِهِمْ إِنْ كُنْتَ مُنَادِيًا، وَادْعُهُمْ إِنْ كُنْتَ لَابِدًا
دَاعِيًا، وَتَرَّ بِعَسْكَرِهِمْ، وَانْظُرْ إِلَى تَقَارُبِ مَنَازِلِهِمُ الَّتِي كَانَ بِهَا عَيْشُهُمْ،
وَسَلْ غَنِيَّتَهُمْ مَا بَقِيَ مِنْ غِنَاهُ، وَسَلْ فَقِيرَهُمْ مَا بَقِيَ مِنْ فَقْرِهِ، وَسَلْهُمْ
عَنِ الْأَلْسِنِ الَّتِي كَانُوا بِهَا يَتَكَلَّمُونَ، وَعَنِ الْأَعْيُنِ الَّتِي كَانَتْ إِلَى اللَّذَاتِ
بِهَا يَنْظُرُونَ، وَسَلْهُمْ عَنِ الْجُلُودِ الرَّقِيقَةِ، وَالْوُجُوهِ الْحَسَنَةِ، وَالْأَجْسَادِ
النَّاعِمَةِ، مَا صَنَعَ بِهَا الدِّيدَانُ، مَحَتِ الْأَلْوَانُ، وَأَكَلَتِ اللَّحْمَانُ، وَعَفَرَتِ

الْوُجُوهَ، وَمَحَتِ الْمَحَاسِنَ، وَكَسَرَتِ الْفَقَارَ، وَأَبَانَتِ الْأَعْضَاءَ، وَمَزَقَتِ
الْأَشْلَاءَ، وَأَيْنَ حِجَاهُهمُ وَقِبَابُهُمُ، وَأَيْنَ خَدْمُهُمُ وَعَبِيدُهُمُ، وَجَمَعَهُمُ
وَمَكْنُوزُهُمُ، وَاللَّهُ مَا زَوَّدُوهُمْ فِرَاشًا، وَلَا وَضَعُوا هُنَاكَ مِتَّكَأً، وَلَا
غَرَسُوا لَهُمُ شَجَرًا، وَلَا أَنْزَلُوهُمْ مِنَ اللَّحْدِ قَرَارًا، أَلَيْسُوا فِي مَنَازِلِ
الْخُلُوتِ وَالْفَلَوَاتِ؟ أَلَيْسَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيْهِمُ سَوَاءٌ؟ أَلَيْسَ هُمْ فِي
مُدْهَمَّةٍ ظُلُمَاءٍ، قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ الْعَمَلِ، وَفَارَقُوا الْأَحِبَّةَ؟ فَكَمْ مِنْ
نَاعِمٍ وَنَاعِمَةٍ أَصْبَحُوا وَوُجُوهُهُمْ بِالْيَةِ، وَأَجْسَادُهُمْ مِنْ أَعْنَاقِهِمْ نَائِيَّةٌ،
وَأَوْصَالُهُمْ مُمَزَّقَةٌ، قَدْ سَالَتِ الْحِدْقُ عَلَى الْوَجَنَاتِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَفْوَاهُ دَمًا
وَصَدِيدًا، وَدَبَّتْ دَوَابُّ الْأَرْضِ فِي أَجْسَادِهِمْ، فَفَرَّقَتْ أَعْضَاءَهُمْ، ثُمَّ لَمْ
يَلْبَثُوا وَاللَّهُ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى عَادَتِ الْعِظَامُ رَمِيمًا، قَدْ فَارَقُوا الْحَدَائِقَ،
فَصَارُوا بَعْدَ السَّعَةِ إِلَى الْمُضَاقِ، قَدْ تَزَوَّجَتْ نِسَاؤُهُمْ، وَتَرَدَّدَتْ فِي
الطُّرُقِ أَبْنَاؤُهُمْ، وَتَوَزَّعَتِ الْقَرَابَاتُ دِيَارَهُمْ وَتُرَاتُهُمْ، فَمِنْهُمْ وَاللَّهُ
الْمُوسِعُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، الْعُصُّ النَّاصِرُ فِيهِ، الْمُتَنَعِّمُ بِلَذَّتِهِ، يَا سَاكِنَ الْقَبْرِ غَدًا
مَا الَّذِي غَرَّكَ مِنَ الدُّنْيَا؟ هَلْ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَبْقَى أَوْ تَبْقَى لَكَ؟ أَيْنَ دَارُكَ
الْفَيْحَاءُ، وَنَهْرُكَ الْمُطَرَّدُ؟ وَأَيْنَ ثَمَرُكَ النَّاصِرُ يَنْعُهُ؟ وَأَيْنَ رِقَاقُ ثِيَابِكَ؟

وَأَيْنَ طَيْبِكَ؟ وَأَيْنَ بُخُورُكَ؟ وَأَيْنَ كَسَوْتُكَ لِصَيْفِكَ وَشِتَائِكَ؟ أَمَا رَأَيْتَهُ
 قَدْ نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ فَمَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ وَجَلًّا؟ وَهُوَ يَرْشُحُ عَرَقًا، وَيَتَلَمَّظُ
 عَطْشًا، يَتَقَلَّبُ مِنْ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَغَمَرَاتِهِ، جَاءَ الْأَمْرُ مِنَ السَّمَاءِ،
 وَجَاءَ غَالِبُ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ، جَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالْأَجَلِ مَا لَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ،
 هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ يَا مُغْمِضَ الْوَالِدِ وَالْأَخِ وَالْوَلَدِ، وَغَاسِلَهُ يَا مُكَفَّنَ الْمَيِّتِ
 وَحَامِلَهُ، يَا مُحْلِيَهُ فِي الْقَبْرِ، وَرَاجِعًا عَنْهُ، لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ كُنْتُ عَلَى
 خُسُونَةِ الثَّرَى، يَا لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ خَدَيْكَ بَدَأَ الْبَلَى، يَا مُجَاوِرَ الْهَلَكَاتِ،
 صِرْتَ فِي مَحَلَّةِ الْمَوْتَى، لَيْتَ شِعْرِي مَا الَّذِي يَلْقَانِي بِهِ مَلِكُ الْمَوْتِ عِنْدَ
 خُرُوجِي مِنَ الدُّنْيَا؟ وَمَا يَأْتِينِي بِهِ مِنْ رِسَالَةِ رَبِّي؟ ثُمَّ تَمَثَّلَ

تُسْرُبًا يَفْنَى وَتُشْغَلُ بِالصَّبَا
 نَهَارُكَ يَا مَغْرُورٌ سَهُوٌ وَعَفْلَةٌ
 وَتَعْمَلُ فِيهَا سَوْفَ تَكْرَهُ غَبَّهُ
 كَمَا غُرَّ بِاللَّذَاتِ فِي النَّوْمِ حَالٌ
 وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لَا زِمُ
 كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ
 ثُمَّ انْصَرَفَ فَمَا بَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا جُمُعَةٌ. أي: أسبوعاً (١).

(١) «حِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ» (٧٣٨٤) وهو: ضعيف.

خاتمة شعرية وموعظة قوية

للأشعارِ الحَسَنَةِ على اختلافِها مَوَاقِعُ لَطِيفَةٌ عِنْدَ الفَهِمِ لَا تُحَدُّ كَيْفِيَّتُهَا
كمَوَاقِعِ الطُّعُومِ المُرَكَّبَةِ الحَفِيفَةِ التَّرْكِيبِ اللَّذِيذَةِ المَذَاقِ، وكالْأَرَايِحِ
الفَائِحَةِ المُخْتَلِفَةِ الطَّيِّبِ والنَّسِيمِ، وكالنُّقُوشِ المُلَوَّنَةِ التَّقَاسِيمِ
والأَصْبَاغِ، وكالمَلَامَسِ اللَّذِيذَةِ الشَّهِيَةِ الحَسِّ، فَهِيَ تَلَائِمُهُ إِذَا وَرَدَتْ
عَلَيْهِ؛ أَعْنِي: الْأَشْعَارَ الحَسَنَةَ لِفَهْمِ، فَيَلْتَذُّهَا، وَيَقْبَلُهَا، وَيَرْتَشِفُهَا
كَارْتِشَافِ الصَّدِيانِ (١) لِلبَّارِدِ الزَّلَالِ، لِأَنَّ الحِكْمَةَ غِذَاءُ الرُّوحِ؛ فَانْجِعْ
الْأَغْذِيَةَ أَلْفُفْهَا. وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ حِكْمَةً (٢)» (٣).

وفي الصحيحين (٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:
«أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ، كَلِمَةٌ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ
بَاطِلٌ»، وَكَادَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ أَنْ يُسْلِمَ. وَقَدْ عَقَدَ ابْنُ مَفْلَحٍ المَقْدِسِيُّ

(١) الصَّدِيانُ: العَطْشَانُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٤٥). عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) عيار الشعر (ص: ٢٢).

(٤) أخرجه البخاري (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦).

فصلاً في كتابه «الآداب الشرعية» (٢ / ١٢٩) يبين فيه اتعاظ العلماء بالشعر وانتفاعهم به فقال **والله** فصل (مَوْعِظَةُ الْعُلَمَاءِ الْمُتَّقِينَ بِالشَّعْرِ) .

قَالَ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ : سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ : خَرَجْتُ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ مُسْبِلٍ مِنْدِيلَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَنَاوَلَنِي رُقْعَةً ، فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ قَرَأْتُهَا فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ :

عِشْ مُوسِرًا إِنْ شِئْتَ أَوْ مُعْسِرًا لَا بُدَّ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْغَمِّ
وَكُلِّمًا زَادَكَ مِنْ نِعْمَةٍ زَادَ الَّذِي زَادَكَ فِي الْهَمِّ
إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ فِي عَصْرِنَا لَا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِلْعِلْمِ
إِلَّا مُبَاهَاةً لِأَصْحَابِهِمْ وَعُدَّةً لِلْخَصْمِ وَالظُّلْمِ
قَالَ : فَظَنَنْتُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى الذُّهْلِيَّ نَاوَلَنِي ، فَلَقِيْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ : الرُّقْعَةُ الَّتِي نَاوَلْتَنِي ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُكَ مَا نَاوَلْتُكَ رُقْعَةً ، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا عِظَةٌ لِي .

وَقَالَ الْحَافِظُ تَقِيُّ الدِّينِ بْنُ الْأَخْضَرِ فِي : «مَنْ رَوَى عَنْ أَحْمَدَ» : عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ قَاضِي تَكْرِيتَ قَالَ : كَتَبَ رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ إِلَيْهِ أَيَّامَ الْمِحْنَةِ :

هَذِي الْخُطُوبُ سَتْتَهِي يَا أَحْمَدُ فَإِذَا جَزَعْتَ مِنَ الْخُطُوبِ فَمَنْ لَهَا
الصَّبْرُ يَقْطَعُ مَا تَرَى فَاصْبِرْ لَهَا فَعَسَى بِهَا أَنْ تَنْجِلِي وَلَعَلَّهَا
فَأَجَابَهُ أَحْمَدُ :

صَبْرْتَنِي وَوَعظْتَنِي فَأَنَا لَهَا فَسَتَجَلِي بَلْ لَا أَقُولُ لَعَلَّهَا
وَيَحُلُّهَا مَنْ كَانَ يَمْلِكُ عَقْدَهَا ثِقَةً بِهِ إِذْ كَانَ يَمْلِكُ حَلَّهَا
فلا شك أن الشعر الجميل له موقع عظيم في النفوس وأن القصائد
الوعظية يستأنس بإنشادها لا سيما في الخلوات، لما فيها من العبر
والعظات، لذا أحببت أن أختتم هذه المذكرة ببعض القصائد المؤثرة ،
التي تعينك على التزود للدار الآخرة .

ومن هذه القصائد الطيبة الماتعة، تلك القصيدة الشائقة الرائقة التي
ذكرها العلامة أبو محمد القاسم بن علي بن محمد الحريري (٥١٦هـ) في
مقاماته «مقامات الحريري» في المقامة البصرية: وهي: « **خَلَّ ادَّكَارَ**
الأَرْبَعِ » .

والمُعْهَدِ الْمُرتَبِعِ خَلَّ ادَّكَارَ الأَرْبَعِ
وَعَدَّ عَنْهُ وَدَّعَ وَالظَّاعِنِ المُوَدَّعِ

وَأَنْذَبَ زَمَانًا سَلَفًا
وَلَمْ تَزَلْ مُعْتَكِفًا
كَمْ لَيْلَةٍ أودَعْتَهَا
لَشَهْوَةٍ أَطَعْتَهَا
وَكَمْ خُطَى حَشَّتْهَا
وَتَوْبَةٍ نَكَشَتْهَا
وَكَمْ تَجَرَّاتٍ عَلَى
وَلَمْ تُرَاقِبْنَاهُ وَلَا
وَكَمْ غَمَضَتِ بَرَّهُ
وَكَمْ نَبَذَتْ أَمْرَهُ
وَكَمْ رَكُضَتْ فِي اللَّعِبِ
وَلَمْ تُرَاعَ مَا يَجِبُ
فَالْبَسْ شِعَارَ النَّدَمِ
قَبْلَ زَوَالِ الْقَدَمِ
وَاخْضَعْ خُضُوعَ الْمُعْتَرِفِ
وَاعْصِ هَوَاكَ وَانْحَرِفِ
إِلَامَ تَسْهُوٍ وَتَنِي

سَوَدَّتْ فِيهِ الصُّحُفَا
عَلَى الْقَبِيحِ الشَّيْنِ
مَائِثًا أَبَدَعْتَهَا
فِي مَرْقَدٍ وَمَضَجَعِ
فِي خَزِيئَةٍ أَحَدَثْتَهَا
لِلْمَلْعَبِ وَمُرْتَعِ
رَبِّ السَّمَوَاتِ الْعُلَى
صَدَقْتَ فِي مَا تَدَّعِي
وَكَمْ أَمْنْتَ مَكْرَهُ
نَبَذَ الْحِذَا المَرْقُوعِ
وَفُهِتَ عُمْدًا بِالْكَذِبِ
مَنْ عَهْدِهِ المَتَّبِعِ
وَاسْكُبْ شَايِبَ الدَّمِ
وَقَبْلَ سُوءِ المَصْرَعِ
وَلِذَ مَلَاذِ المُقْتَرِفِ
عَنْهُ انْجِرَافَ المَقْلَعِ
وَمُعْظَمَ العُمَرِ فَنِي

فِي مَا يَضُرُّ الْمُتَّقِي
 أَمَا تَرَى الشَّيْبَ وَخَطَّ
 وَمَنْ يُلْحُ وَخَطُّ الشَّمْطِ
 وَيَحْكُ يَا نَفْسَ احْرِصِي
 وَطَاوِعِي وَأَخْلِصِي
 وَاعْتَبِرِي بِمَنْ مَضَى
 وَاخْشَيْ مُفَاجَاةَ الْقَضَا
 وَانْتَهَجِي سُبُلَ الْهُدَى
 وَأَنْ مَثُوكِ غَدَا
 أَهَالَهُ يَبْتَ الْبَلَى
 وَمَوْرِدِ السَّفْرِ الْأَلَى
 يَبْتَ يُرَى مَنْ أُوْدِعَهُ
 بَعْدَ الْفَضَاءِ وَالسَّعَةِ
 لَا فَرْقَ أَنْ يَحْلَهُ
 أَوْ مُعْسِرٌ أَوْ مَنْ لَهُ
 وَبَعْدَهُ الْعَرَضُ الَّذِي
 وَالْمُبْتَدِي وَالْمُحْتَذِي
 فَيَا مَفَازَ الْمُتَّقِي

وَلَسْتَ بِالْمَرْتَدِّعِ
 وَخَطَّ فِي الرَّأْسِ خِطَطُ
 بِفَوْدِهِ فَقَدْ نَعِيَ
 عَلَى ارْتِيَادِ الْمَخْلَصِ
 وَاسْتَمْعِي النَّصْحَ وَعِي
 مِنَ الْقُرُونِ وَانْقُضَى
 وَحَاذِرِي أَنْ تُخْدَعِي
 وَادْكِرِي وَشَكَّ الرَّدَى
 فِي قَعْرِ لَحْدٍ بَلَقَعَ
 وَالْمَنْزِلِ الْقَفْرِ الْخَلَا
 وَاللَّاحِقِ الْمُتَّبِعِ
 قَدْ ضَمَّهُ وَاسْتُوْدِعَهُ
 قِيَدَ ثَلَاثِ أَذْرُعِ
 دَاهِيَةٍ أَوْ أَبْلَاهُ
 مُلْكٌ كَمُلْكٍ تُبَّعِ
 يَخْوِي الْحَيَّ وَالْبَذِي
 وَمَنْ رَعَى وَمَنْ رُعِيَ
 وَرُبِحَ عَبْدٌ قَدْ وُقِيَ

وهوْلُ يَوْمِ الْفَزَعِ
وَمَنْ تَعَدَّى وَطَغَى
لَمَطَعَمٍ أَوْ مَطْمَعٍ
قَدْ زَادَ مَا بِي مِنْ وَجَلٍ
فِي عُمْرِي الْمَضْيَعِ
وَارْحَمْ بُكَاهُ الْمُنْسَجِمِ
وَخَيْرُ مَدْعُو دُعَايِ

سَوْءَ الْحِسَابِ الْمَوْبِقِ
وَيَا خَسَارَ مَنْ بَغَى
وَشَبَّ نِيرَانَ الْوَعَى
يَا مَنْ عَلَيْهِ الْمُتَكَلِّ
لِمَا اجْتَرَحْتُ مِنْ زَلَلٍ
فَاغْفِرْ لِعَبْدٍ مُجْتَرِمٍ
فَأَنْتَ أَوْلَى مِنْ رَحِمٍ

وهذه موعظة أخرى رائقة وقصيدة فائقة ذكرها الحريري في «مقاماته»

أيضاً وهي: «أَيَا مَنْ يَدْعِي الْفَهْمَ»

إِلَى كَمْ يَا أَخَا الْوَهْمِ
وَتُخْطِى الْخَطَا الْجَمَّ
أَمَّا أَنْذَرَكُ الشَّيْبَ
وَلَا سَمْعَكَ قَدْ صَمَّ
أَمَّا أَسْمَعَكَ الصَّوْتِ
فَتَحْتَاطَ وَتَهْتَمَّ
وَتَحْتَالُ مِنَ الزَّهْوِ
كَأَنَّ الْمَوْتَ مَا عَمَّ
وَإِبْطَاءَ تَلَايِكَ

أَيَا مَنْ يَدْعِي الْفَهْمَ
تُعْبَى الذَّنْبَ وَالذَّمَّ
أَمَّا بَانَ لَكَ الْعَيْبُ
وَمَا فِي نُصْحِهِ رَيْبُ
أَمَّا نَادَى بِكَ الْمَوْتُ
أَمَّا تَخْشَى مِنَ الْفَوْتُ
فَكَمْ تَسْدَرُ فِي السَّهْوِ
وَتَنْصَبُّ إِلَى اللَّهْوِ
وَحَتَامَ تَجَافِيكَ

طِبَاعاً جَمَعْتَ فِيكَ
 إِذَا أَسَخَطْتَ مَوْلَاكَ
 وَإِنْ أَخَفَقَ مَسْعَاكَ
 وَإِنْ لَاحَ لَكَ النَّقْشُ
 وَإِنْ مَرَّ بِكَ النَّعْشُ
 تُعَاصِي النَّاصِحَ الْبَرَّ
 وَتُقَادُ لِمَنْ غَرَّ
 وَتَسْعَى فِي هَوَى النَّفْسِ
 وَتَنْسَى ظُلْمَةَ الرَّمْسِ
 وَلَوْ لَاحَظَكَ الْحَظُّ
 وَلَا كُنْتَ إِذَا الْوَعْظُ
 سَتُذْهِبُ الدَّمَ لَا الدَّمَغُ

يَقَى فِي عَرَصَةِ الْجَمْعِ
 كَأَنِّي بِكَ تَنْحَطُّ
 وَقَدْ أَسْلَمَكَ الرَّهْطُ
 هُنَاكَ الْجِسْمُ مَمْدُودُ
 إِلَى أَنْ يَنْخَرَّ الْعَوْدُ
 وَمَنْ بَعْدُ فَلَا بُدَّ
 صِرَاطُ جَسْرُهُ مُدَّ
 فَكَمْ مِنْ مُرْشِدٍ ضَلَّ

عُيُوباً شَمَلَهَا انْضَمَّ
 فَمَا تَقَلَّقُ مَنْ ذَاكَ
 تَلْظِيَّتَ مَنْ اِهْمَمَّ
 مَنْ الْأَصْفَرُ تَهْتَشَّ
 تَغَامَمْتَ وَلَا غَمَّ
 وَتَعْتَاصُ وَتَزُورُ
 وَمَنْ مَانَ وَمَنْ نَمَّ
 وَتَحْتَالُ عَلَى الْفُلْسِ
 وَلَا نَذْكُرُ مَا نَمَّ
 لِمَا طَاحَ بِكَ اللَّحْظُ
 جَلَا الْأَحْزَانُ تَغْتَمَّ
 إِذَا عَايَنْتَ لَا جَمْعُ

وَلَا خَالَ وَلَا عَمَّ
 إِلَى اللَّحْدِ وَتَنْغَطُّ
 إِلَى أَضْيَقَ مَنْ سَمَّ
 لَيْسَتْ أَكِلَهُ الدَّوْدُ
 وَيُمْسِي الْعِظْمُ قَدْرَمَ
 مَنْ الْعَرَضُ إِذَا اعْتَدَّ
 عَلَى النَّارِ لِمَنْ أَمَّ
 وَمَنْ ذِي عِزَّةٍ ذَلَّ

وكم من عالم زل
فبادر أيها العُمُرُ
فقد كادَ يهَى العُمُرُ
ولا تركزنَ الى الدهرِ
فتُلَفِي كمن اغترَّ
وخَفَضَ من تراقيكُ
وسارَ في تراقيكُ
وجانبَ صعرَ الخدِّ
وزمَ اللَّفْظَ إن نَدَّ
ونفَسَ عن أخى البثِّ
وزمَ العمَلَ الرثِّ
ورشَ من ريشُهُ انحصَّ
ولا تأسَ على النقصِ
وعادِ الخُلُقَ الرذُلُ
ولا تستمعِ العذلُ
وزودَ نفسَكَ الخيرِ
وهيئِ مركبَ السَّيرِ
بِذا أوصيتُ يا صاحُ
فطوبى لفتَّى راحُ

وقال الخطبُ قد طمَّ
لما يخلو به المُرَّ
وما أقلعتَ عن ذمِّ
وإنَّ لَآنَ وإن سرَّ
بأفعى تنفثُ السمَّ
فإنَّ الموتَ لا قيكُ
وما ينكُلُ إن همَّ
إذا ساعدَكَ الجدَّ
فما أسعدَ مَنْ زَمَّ
وصدَّقَهُ إذا نثَّ
فقد أفلحَ مَنْ رَمَّ
بما عمَّ وما خصَّ
ولا تحرضِ على اللِّمِّ
وعودُ كَفَّكَ البذلُ
ونزَّهها عن الضمِّ
ودعْ ما يعقبُ الضَّيرُ
وخَفْ من جُلةِ اليمِّ
وقد بُحْتُ كمن باحُ
بآدابي يأتَمَّ

ورُوي عن أبي حامد الخُلُقاني قَالَ: قلتُ لأحمد بن حنبل: ما تقول في القصائد. فقال: في مثل ماذا؟. قلت: مثل ما تقول:

إذا ما قال لي ربِّي: أما استحييت تعصيني
وتُخفي الذنب عن خلقي وبالعصيان تأتيني؟
فأمرني أحمد بإعادتهما عليه، فأعدتهما عليه فدخل أحمد داره وجعل
يرددهما ويبكي فخرَجْتُ وتركتَه (١).

وهذه الأبيات هي مطلع قصيدة طويلة إليكموها كاملة :

إذا ما قال لي ربي: أما استحييت تعصيني
وتُخفي الذنب عن خلقي وبالعصيان تأتيني
فكيف أجيبُ يا ويحي ومن ذا سوف يحميني
أسلى النفس بالآمال من حين إلى حين
وأنسى ما وراء المو ت ماذا سوف تكفيني
كأنني قد ضمنتُ العي ش ليس الموت يكفيني
وجاءت سكرة الموت ال شديدة من سيحميني
نظرتُ إلى الوجوه ألي س منهم من سيفدينني؟

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (١ / ٢٩٩)، «مجموع رسائل ابن رجب» (٣ / ٣٧٥).

ت في دنياي ينجينى
 د ما فرطت في دينى
 كلام الله يدعوني
 آء في قاف ويس
 ت يدعوني ينادينى
 ئب من ذا سيؤوينى
 سع للحق يهدينى
 وثقل في موازينى
 ت أرجى من يجازينى

سأسأل ما الذي قدم
 فكيف إجابتى من بعد
 ويا ويحي ألم أسمع
 ألم أسمع بما قد جـ
 ألم أسمع مُنادي المو
 فيا رباه عبداً تا
 سوى رب غفور وا
 أتيتُ إليك فارحمني
 وخفف في جزائي أنا

ومن الأبيات الوعظية المؤثرة قول الشاعر

و من عَفَرَ التراب فوسَّدوه
 وفي الرُّمُس البعيد فغَيَّبوه
 صبيحة ثالثٍ : أنكرتموه
 على وَجَناته ، وانفض فوه
 هلموا فانظروا هل تعرفوه
 تقادم عهده فنسيتموه (١)

ضعوا خدي على لحدي ضعوه
 وشقوا عنه أكفاناً رقاقاً
 فلو أبصرتموه إذا تقضت
 وقد سالت نواظر مقلتيه
 وناداه البلا : هذا فلان
 حبيبكم وجاركم المفدى

(١) «التذكرة» للقرطبي (ص: ٣٣٢).

ومن المواعظ المؤثرة أيضا قول الشاعر:

مَثَلٌ لِنَفْسِكَ أَيُّهَا الْمَغْرُورُ
إِذْ كَوَّرْتَ شَمْسُ النَّهَارِ وَأَدْنَيْتَ
وَإِذَا النُّجُومُ تَسَاقَطَتْ وَتَنَازَرَتْ
وَإِذَا الْبَحَارُ تَفَجَّرَتْ مِنْ خَوْفِهَا
وَإِذَا الْجِبَالُ تَعَلَّقَتْ بِأَصْوِلِهَا
وَإِذَا الْعِشَارُ تَعَطَّلَتْ عَنْ أَهْلِهَا
وَإِذَا الْوُحُوشُ لَدَى الْقِيَامَةِ أَحْضِرَتْ
وَإِذَا تَقَاةَ الْمُسْلِمِينَ تَزَوَّجَتْ
وَإِذَا الْمَوْؤَدَةَ سَأَلَتْ عَنْ شَأْنِهَا
وَإِذَا الْجَلِيلَ طَوَى السَّمَاءُ بِيَمِينِهِ
وَإِذَا الصَّحَائِفُ عِنْدَ ذَلِكَ تَسَاقَطَتْ
وَإِذَا الصَّحَائِفُ نَشَرَتْ فَتَطَايَرَتْ
وَإِذَا السَّمَاءُ تَكَشَّطَتْ عَنْ أَهْلِهَا
وَإِذَا الْجَحِيمُ تَسَمَّرَتْ نِيرَانِهَا
وَإِذَا الْجَنَانُ تَزَخَّرَتْ وَتَطْيَبَتْ
وَإِذَا الْجَنِينَ بِأَمِّهِ مُتَعَلَّقًا

يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاءُ تَمُورُ
حَتَّى عَلَى رَأْسِ الْعِبَادِ تَسِيرُ
وَتَبَدَّلَتْ بَعْدَ الضِّيَاءِ كُدُورُ
وَرَأَيْتَهَا مِثْلَ الْجَحِيمِ تَفُورُ
فَرَأَيْتَهَا مِثْلَ السَّحَابِ تَسِيرُ
خَلَّتِ الدِّيَارُ فَمَا بِهَا مَعْمُورُ
وَتَقُولُ لِلْأَمْلاكِ: أَيَّنَ نَسِيرُ
مِنْ حُورِ عَيْنِ زَانِهِنِ شَعُورُ
وَبِأَيِّ ذَنْبٍ قَتَلَهَا مِيسُورُ
طَيَّ السَّجَلِ كِتَابَهُ الْمُنْشُورُ
تَبْدَى لَنَا يَوْمَ الْقِصَاصِ أُمُورُ
وَتَهْتَكُ لِلْمُؤْمِنِينَ سِتُورُ
وَرَأَيْتَ أَفْلَاكَ السَّمَاءِ تَدُورُ
فَلَهَا عَلَى أَهْلِ الذُّنُوبِ زَفِيرُ
لَفَتَى عَلَى طُولِ الْبَلَاءِ صَبُورُ
خَوْفَ الْحِسَابِ وَقَلْبُهُ مَدْعُورُ

هَذَا بِلا ذَنْبٍ يَخَافُ لَهُوْلِهِ كَيْفَ الْمُقِيمِ عَلَى الذُّنُوبِ دُهُورٌ^(١)
 ومن أجمل القصائد وأحسنها وأروعها وأشهرها ، تلك القصيدة
 المشهورة الموسومة بـ « **لَيْسَ الْغَرِيبُ** » المنسوبة لزين العابدين علي بن
 الحسين **رحمته الله** حيث يقول فيها:

لَيْسَ الْغَرِيبُ غَرِيبَ الشَّامِ وَالْيَمَنِ
 إِنَّ الْغَرِيبَ لَهُ حَقٌّ لِّغُرْبَتِهِ
 سَفَرِي بَعِيدٌ وَزَادِي لَنْ يَبْلُغَنِي
 وَلِي بَقَايَا ذُنُوبٍ لَسْتُ أَعْلَمُهَا
 مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَنِّي حَيْثُ أَمْهَلَنِي
 تَمَرُّ سَاعَاتُ أَيَّامِي بِلا نَدَمٍ
 أَنَا الَّذِي أَغْلِقُ الْأَبْوَابَ مُجْتَهِدًا
 يَا زَلَّةً كُتِبَتْ فِي غَفْلَةٍ ذَهَبَتْ
 دَعْنِي أَنُوحَ عَلَى نَفْسِي وَأَنْدُبُهَا
 كَأَنِّي بَيْنَ تِلْكَ الْأَهْلِ مُنْطَرِحًا
 وَقَدْ أَتَوْا بِطَبِيبٍ كَيِّ يُعَالِجُنِي
 إِنَّ الْغَرِيبَ غَرِيبُ اللَّحْدِ وَالْكَفَنِ
 عَلَى الْمُقِيمِينَ فِي الْأَوْطَانِ وَالسَّكَنِ
 وَقُوَّتِي ضَعُفَتْ وَالْمَوْتُ يَطْلُبُنِي
 اللَّهُ يَعْلَمُهَا فِي السَّرِّ وَالْعَلَنِ
 وَقَدْ تَمَادَيْتُ فِي ذَنْبِي وَيَسْتُرُنِي
 وَلَا بُكَاءٍ وَلَا خَوْفٍ وَلَا حَزَنٍ
 عَلَى الْمَعَاصِي وَعَيْنُ اللَّهِ تَنْظُرُنِي
 يَا حَسْرَةً بَقِيتُ فِي الْقَلْبِ تُحْرِقُنِي
 وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالْحَزَنِ
 عَلَى الْفَرَاشِ وَأَيْدِيهِمْ تُقَبِّلُنِي
 وَلَمْ أَرَ الطَّبَّ هَذَا الْيَوْمَ يَنْفَعُنِي

(١) «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص: ٥٤٥) «مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار»

مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلَا رِفْقٍ وَلَا هَوْنٍ
وَصَارَ رِبْقِي مَرِيراً حِينَ غَرَّعَنِي
بَعْدَ الْإِيَّاسِ وَجَدُّوا فِي شِرَا الْكَفَنِ
نَحْوَ الْمُغْسَلِ يَأْتِينِي يُغَسِّلُنِي
حُرّاً أَرِيْباً لَبِيْباً عَارِفاً فِطْنِ
مِنَ الثِّيَابِ وَأَغْرَانِي وَأَفْرَدَنِي
وَصَارَ فَوْقِي خَرِيرُ الْمَاءِ يَنْظِفُنِي
غُسْلاً ثَلَاثاً وَنَادَى الْقَوْمُ بِالْكَفَنِ
وَصَارَ زَادِي حَنُوطِي حِينَ حَطَّنِي
عَلَى رَحِيلِ بِلَا زَادٍ يُبَلِّغُنِي
مِنَ الرَّجَالِ وَخَلْفِي مَنْ يُشَبِّعُنِي
خَلْفَ الْإِمَامِ فَصَلَّى ثُمَّ وَدَّعَنِي
وَلَا سُجُودَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرَحُّنِي
وَقَدَّمُوا وَاحِداً مِنْهُمْ يُلَحِّدُنِي
وَأَسْكَبَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنَيْهِ أَغْرَقَنِي
وَصَفَّفَ اللَّبْنَ مِنْ فَوْقِي وَفَارَقَنِي
حُسْنَ الثَّوَابِ مِنَ الرَّحْمَنِ ذِي الْمَنَنِ
أَبَّ شَفِيقٌ وَلَا أَحْ يُؤَنِّسُنِي
مِنْ هَوْلٍ مَطْلَعٌ مَا قَدْ كَانَ أَدْهَشَنِي
قَدْ هَالَنِي أَمْرُهُمْ جِداً فَأَفْرَعَنِي
مَالِي سِوَاكَ إِلَهِي مَنْ يُخَلِّصُنِي

وَأَشْتَدَّ نَزْعِي وَصَارَ الْمَوْتُ يَجْذِبُنِي
وَأَسْتَخْرِجُ الرُّوحَ مِنِّي فِي تَغَرُّغِهَا
وَعَمَّضُونِي وَرَاحَ الْكُلُّ وَانْصَرَفُوا
وَقَامَ مَنْ كَانَ حَبَّ النَّاسِ فِي عَجَلٍ
وَقَالَ يَا قَوْمُ نَبْغِي غَاسِلاً حَذِيقاً
فَجَاءَنِي رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدَنِي
وَأَوْدَعُونِي عَلَى الْأَلْوَحِ مُنْطَرِحاً
وَأَسْكَبَ الْمَاءَ مِنْ فَوْقِي وَغَسَّلَنِي
وَأَلْبَسُونِي ثِيَاباً لَا كِمَامَ لَهَا
وَأَخْرَجُونِي مِنَ الدُّنْيَا فَوَا أَسْفَاً
وَحَمَلُونِي عَلَى الْأَكْتافِ أَرْبَعَةً
وَقَدَّمُونِي إِلَى الْمَحْرَابِ وَانْصَرَفُوا
صَلُّوا عَلَيَّ صَلَاةَ لَا رُكُوعَ لَهَا
وَأَنْزَلُونِي إِلَى قَبْرِي عَلَى مَهَلٍ
وَكَشَفَ الثُّوبَ عَن وَجْهِي لِيَنْظُرَنِي
فَقَامَ مُحْتَرِماً بِالْعَزَمِ مُشْتَمِلاً
وَقَالَ هُلُّوا عَلَيْهِ التُّرْبَ وَاعْتَنِمُوا
فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ لَا أُمَّ هُنَاكَ وَلَا
وَهَالَنِي صُورَةً فِي الْعَيْنِ إِذْ نَظَرْتُ
مِنْ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ مَا أَقُولُ لَهُمْ
وَأَفْعِدُونِي وَجَدُّوا فِي سُوءِ أَلْهُمُّ

فَإِنِّي مُوثَّقٌ بِالذَّنْبِ مُرْتَهَنٌ
وَصَارَ وَزْرِي عَلَى ظَهْرِي فَأَثْقَلَنِي
وَحَكَمْتُهُ عَلَى الْأَمْوَالِ وَالسَّكَنِ
وَصَارَ مَالِي لَهُمْ جَلًّا بِلا ثَمَنِ
وَانْظُرْ إِلَى فِعْلِهَا فِي الْأَهْلِ وَالْوَطَنِ
هَلْ رَاحَ مِنْهَا بَغَيْرِ الْحَنْطِ وَالْكَفَنِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا رَاحَةُ الْبَدَنِ
يَا زَارِعَ الشَّرِّ مُوقُوفٌ عَلَى الْوَهْنِ
فِعْلًا جَمِيلًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرَحْمَنِي
عَسَى تُجَازَيْنَ بَعْدَ الْمَوْتِ بِالْحَسَنِ
مَا وَضَّاءَ الْبَرْقِ فِي شَامٍ وَفِي يَمَنِ
بِالْخَيْرِ وَالْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ وَالْمِنَّنِ

فَأَمْنٌ عَلَيَّ بِعَفْوٍ مِنْكَ يَا أَمَلِي
تَقَاسَمَ الْأَهْلُ مَالِي بَعْدَمَا انْصَرَفُوا
وَاسْتَبَدَّلَتْ زَوْجَتِي بَعْلًا لَهَا بَدَلِي
وَصَيَّرَتْ وَلَدِي عَبْدًا لِيَخْدُمَهَا
فَلَا تَغُرَّنَاكَ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا
وَانْظُرْ إِلَى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
خُذِ الْقِنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَا
يَا زَارِعَ الْخَيْرِ تَحْصُدْ بَعْدَهُ ثَمَرًا
يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ الْعِصْيَانِ وَاكْتَسِبِي
يَا نَفْسُ وَيْحَكَ تُوبِي وَاعْمَلِي حَسَنًا
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُخْتَارِ سَيِّدِنَا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تُمْسِينَا وَمُصْبِحِنَا

تمت الرسالة بحمد الله



المحتويات

| | |
|---------|--|
| ٢..... | مقدمة |
| ١٣..... | تمهيد |
| ١٤..... | ذكر الله في الخلوات |
| ٢١..... | وجوب مراقبة الله |
| ٣٠..... | من الرجولة والفتوة مراقبة الله في الخلوات |
| ٣٥..... | تقوى الله في الخلوات والجلوات |
| ٤٧..... | من حفظ الله في الخلوات حفظه الله في الفلوات |
| ٥٣..... | تفسير بعض الآيات بحفظ الله في الخلوات |
| ٦٦..... | خشية الله في الخلوات من أسباب المغفرة وتفريج الكربات |
| ٧٠..... | الحياء وصيانة الخلوات |
| ٧٥..... | العفاف في الخلوات |
| ٨٣..... | مناجاة الصالحين ربهم في الخلوات |
| ٩٠..... | المخلصون وحبههم لعمل الخلوات |
| ٩٦..... | أهل العلم والمراقبة |

- نداء لمن يظهر الخير والصلاح في الظاهر دون الباطن ١٠٩
- لا يكمل التزيين الظاهر إلا بتزيين الباطن ١٢٢
- الخلوة عن الناس لا سيما أيام الفتن ١٢٤
- الحث على العبادات في الخلوات ١٣٥
- التحذيرات من ذنوب الخلوات ١٣٨
- الواجب على العاصي في الخلوات ١٤١
- ألم يعلم بأن الله يرى ١٤٦
- لا يكن الله أهون الناظرين إليك ١٥٣
- الجوالات والقنوتات وذنوب الخلوات ١٥٤
- ذنوب الخلوات من علامات النفاق ١٦٠
- ذنوب الخلوات سبب لسوء الخاتمة ١٦٢
- الجرأة على المعاصي في الخلوات ١٦٥
- للخلوة تأثيرات تبيّن في الجلوة ١٧١
- كيف يتخلص الإنسان من ذنوب الخلوات ١٨١
- دعوة إلى التوبة ١٨٤
- شروط التوبة ١٨٦

١٩٢ إشكال وجوابه

١٩٩ موعظة

٢١١ خاتمة شعرية وموعظة قوية

٢٢٥ المحتويات